

مفتی صاحب المذہب احمد
اثر من بتقدم هذا
راجيا انه يعاين هذه

دکنورز کی نجیب محمود

۱۹۴۷/۸۰۸۲

89274
M214jA



جَنَّةُ الْعَبَّيْطِ أو "أَدَبُ الْمُقَالَاتِ"

۲۸۶۱

79354

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

۱۹۴۷

الاهراء

إلى نفسى

التي تعانى من جدّها العائر

Me Gula

رومہ رلا

رلا لہو نہ رلا رلا

مقدمة

لست أقيس قاتمي إلى ذرة من «وردزورث» أو «كولردج» الشعارين الإنجليزين اللذين أخرجنا معاديوان «الحكايات الوجدانية المنظومة» في أول القرن التاسع عشر؛ كلا، ولا أقيس شيئاً في هذا الكتاب بشيء من ذلك الديوان؛ لكن كان لهذين الشعارين أمل، كما أن لي أملاً؛ وانهج الشعاران في الديوان منهاجا، فانهجت في هذا الكتاب منهاجا. رأى الشعاران رأيا في الشعر خالفا به المعروف المألوف إذذاك، فبسط أحدهما — وردزورث — هذا الرأي الجديد في مقدمة طويلة للديوان، ثم جاءت بقية الديوان — مما نظم الشعاران — بمثابة التطبيق، وأصبح ديوان «الحكايات الوجدانية المنظومة» منذ ذلك الحين معلما في تاريخ الأدب يؤرخ به المؤرخون بداية عصر الابتداع.

كذلك رأيت في المقالة الأدبية رأيا أخالف به الذائع الشائع في أدبنا، وأوافق فيه رجال الأدب في الغرب، فقدمت للكتاب بفصل في شروط المقالة الأدبية وأوصافها، ثم عقيبت على ذلك

بمقالات هي — باستثناء عدد قليل منها في نهاية الكتاب —
بمثابة التطبيق لما بسطت من قواعد .

قارئ الكريم :

نشدتك الله لا تحكم على قيمة هذا الكتاب بقيمة كاتبه ؛
إن كاتبه ليرجو أن يكبر في عينيك بهذا الكتاب .

نشدتك الله لا تحكم على هذا الكتاب بعدد صفحاته ؛ إن
صاحبه ليأمل أن يشق في المقالة الأدبية طريقاً جديداً بهذه
الصفحات .

نشدتك الله لا تحكم على هذا الكتاب بمعیار قادة الأدب
في بلادنا ؛ إنما نشرت هذا الكتاب لأنهاض به أولئك القادة ؛
فكأنما بهذا الكتاب أقول : من هنا الطريق بإسادة
لا من هناك .

زكي نجيب محمود

القاهرة في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٧

أدب المقالة

إن معظم النار من مستصغر الشرر ؛ ذلك ما قرأته في الكتب وما تعلمته من تجربة الحياة ، وهو ما أجرى القلم بهذه الكلمات ... فليس بعيداً أن ينبه هذا القلم المتواضع — الذي لا يكاد صريه يبلغ سمع صاحبه — أديباً واحداً من أئمة الأدب في هذا البلد فيتجه وجهة جديدة في كتابة المقالة الأدبية .

فالمقالة توشك أن تكون في مصر القلب الأوحـد الذي يصب فيه الأديب خواطره ومشاعره ، فأديبنا قصير النفس ، تكفيه المقالة الواحدة ليفرغ في أنهرها القليلة كل ما يتأجج به صدره من عاطفة وما يختلج به رأسه من فكرة ؛ فإن غضب أديبنا من نقص يلحـه في بناء الجماعة أو أخلاق الفرد ، فزع إلى المقالة يصب فيها ثورة غضبه ؛ وإن افقتن أديبنا بحـمال الطبيعة الخلاب ، لجأ إلى المقالة يبت فيها ما أحس من عجب وإعجاب ... أما الأديب الذي يريد أن يعالج بؤس البائسين فينشر في الناس القصة تلو القصة حتى يبلغ ما ينشره ألوف الصحائف كما فعل « دكنز » ؛ أما الأديب الذي يعطف على العمال فيكتب في ذلك للمسرح الرواية في إثر الرواية كما فعل « جولزورثي » . أما الأديب

الذى يتلقى خطاباً من قارئة تستفسره الاشتراكية فيرد على الرسالة بمجلدين ، كما فعل « برناردشو » ، أما الأديب الذى يرى علاج الإنسانية فى حكومة دولية تمسك بزمام العالم كله فيكتب فى ذلك كتباً تزيد على الخمسين كما فعل « ولز » . مثل هذا وذلك من الأدباء لم تشهده مصر ، فبؤس البائسين علاجه مقالة ، والعمال تكفى لنصرتهم مقالة ، وحل المشكلات الدولية حسبه مقالة ...

فالمقالة إذاً هى عندنا ملاذ الأديب ، الذى ليس له من دونها ملاذ ، ولا بأس بهذا لو كانت المقالة الأدبية فى مصر أدباً تعترف به قواعد الأدب الصحيح . ولكن الأديب المصرى يكتب المقالة التى لو قيست بمعيار النقد الأدبى لطارت هباءً ، ولأغلقت دولة الأدب من دونها الأبواب ، وإنما قصدت بمعيار النقد ما يكاد يجمع عليه النقاد من أدباء الإنجليز .

فهم هنالك يقولون إن المقالة يجب أن تصدر عن قلق يحسه الأديب مما يحيط به من صور الحياة وأوضاع المجتمع ، على شرط أن يجىء السخط فى نعمة هادئة خفيفة ، هى أقرب إلى الأنين الخافت منها إلى العويل الصارخ ، أو قل يجب أن يكون سخطاً مما يعبر عنه الساخط بهزة فى كتفيه ومط فى شفثيه ، مصطبغاً بفكاهة لطيفة ، لا أن يكون سخطاً مما يدفع الساخط إلى تحطيم

الأثاث وتمزيق الثياب . . . هذا السخط على الحياة القائمة في هدوء وفكاهة ، هذا السخط الذي لم يبلغ أن يكون ثورة عنيفة ، هو موضوع المقالة الأدبية بمعناها الصحيح ؛ فإن تضرمت في نفس الأديب ثورة كاسحة جامحة ، فلا يجوز له نقد الأدب أن يتخذ المقالة متنفساً لثورته ، وليسلك — إن أراد — سبيله إلى المنابر يلقي ثورته في موعظة ، لأنها تحمل من الواعظ أعنف ألوان التقرير ، أوليلتمس سبيلاً إلى القصيدة — إن كان شاعراً — لأن القصائد لا تتنافر بطبعها مع الحماس المشتعل .

شرط المقالة الأدبية أن يكون الأديب ناقماً ، وأن تكون النقمة خفيفة يشيع فيها لون باهت من التفكه الجميل ؛ فإن التمس في مقالة الأديب نقمة على وضع من أوضاع الناس فلم تجدها ، وإن افتقدت في مقالة الأديب هذا اللون من الفكاهة الحلوة المستساغة فلم تصبه ، فاعلم أن المقالة ليست من الأدب الرفيع في كثير أو قليل ، مهما تكن بارعة الأسلوب رائعة الفكرة ؛ وإن شئت فاقرأ لرب المقالة الانجليزية « أدسن » ما كتب ، فلن تجده إلا مازجاً سخطه بفكاهته ، فكان ذلك أفعل أدوات الإصلاح .

نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه مُحدثاً لا معلماً

بحيث يجد القارى نفسه إلى جانب صديق يسامره لا أمام معلم يعنفه ، نريد من كاتب المقالة الأدبية أن يكون لقارئه زميلاً مخلصاً يحدثه عن تجاربه ووجهة نظره ، لا أن يقف منه موقف الواعظ فوق منبره يميل صلفاً وتيهاً بورعه وتقواه ، أو موقف المؤدب يصطنع الوقار حين يصب في أذن سامعه الحكمة صباً ثقيلاً ، نريد للقارى أن يشعر وهو يقرأ المقالة الأدبية أنه ضيف قد استقبله الكاتب في حديثه ليمتعه بحلو الحديث ، لا أن يحس كأنما الكاتب قد دفعه دفعاً عنيفاً إلى مكتبته ليقرأ له فصلاً من كتاب !

لهذا كله يشترط الناقد الانجليزى فى المقالة الأدبية شرطاً لا أحسب شيوخ الأدب عندنا يقرونه عليه ، يشترط أن تكون المقالة على غير نسق من المنطق ، أن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة ، ويعرّف «جونسون» — ومكانته من الأدب الانجليزى فى الذروة العليا — يعرّف المقالة فيقول : إنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط من نظام ، هي قطعة لا تجرى على نسق معلوم ولم يتم هضمها فى نفس كاتبها ، وليس الإنشاء المنظم من المقالة الأدبية فى شيء .

أين هذا من المقالة الأدبية فى مصر ؟ لقد سمعت أديباً كبيراً

يسأل أديباً كبيراً مرة فيقول : هل قرأت مقالى فى هلال هذا الشهر ؟ فأجابه : أن نعم ، فسأله : وماذا ترى فيه ؟ هل ترى أهملت نقطة من نقط الموضوع ؟ فأجابه قائلاً : العفو ، وهل مثلك من يهمل فى مقالة يكتبها شاردة أو واردة ؟ ! هذه هى المقالة عند قادة الأدب : أن تكون موضوعاً إنشائياً مدرسياً كل فضله أنه جميل اللفظ واسع النظر ، فالفرق بين مقالة الأديب وموضوع التلميذ فرق فى الكم لا فى الكيف . . . فله درك يا معلم اللغة العربية فى المدارس المصرية ! إنك لتتعب بتأثيرك شيوخ الكتاب بين كتبهم وأوراقهم ، كأنى بك تضغط على أذن الكاتب بين إبهامك وسبابتك حين يحمل قلمه ليكتب ، مذكراً إياه : هل وفيت نقط الموضوع ؟ أين نقط الموضوع ؟ !

كلا ، ليس للمقالة الأدبية ، ولا ينبغى أن يكون لها ، نقطٌ ولا تبويب ولا تنظيم ؛ فإن كانت كذلك ، فلا عجب أن ينفر القارئون — يا أيها الأدباء — من قراءة ما تكتبون ! لا تعجبوا يا قادة الأدب المصرى ألا يقرأكم إلا قلة من طبقة القارئین ، لأنكم تصرون على أن يقف الكاتب منكم إزاء قارئه موقف المعلم لا الزميل ، موقف الكاتب لا المحدث ، موقف المؤدب لا الصديق ، ويصطنع الوقار فلا يصل نفسه بنفسه ؛ وإلا فحدثنى بربك أى

فرق يجده القارىء بين الصحيفة الأدبية والكتاب المدرسى ؟
أرأيت كيف يتحدث الصديق إلى صديقه عن حادثة
شهدها في عربة الترام وهو في طريقه إليه ؟ أرأيت كيف يلاحظ
الصديق لصديقه إذ هما يسيران ملاحظة من هنا وملاحظة من
هناك حول ما يقع عليه البصر ؟ انقل هذا براءة الأديب وبراعته
يكن لك منه مقالة أدبية من الطراز الأول ؛ أما أن تعلم القارىء
فصلا في عوامل سقوط الدولة الأموية أو في أسباب انحلال المجتمع
وما إلى ذلك من فصول ، فذلك مفيد على أنه درس علمي ،
ونافع في عرض اطلاعك الواسع ، ومثقف للقارىء كما يثقفه فصل
من كتاب ، ودافع إلى الفضيلة على أنه موعظة منبرية... ولكن
لا تطمح أن تكون أديبا بما تكتب من أمثال هذه الفصول
والأبواب ، فلن تكون بأمثالها في دولة الأدب قرما ولا عملاقا..
أنت بهذه الفصول عالم ولست بأديب . أنت بها قارىء ولست
بكااتب ، وفضلك أن نقلت إلى القراء ما قرأت... وإنه لفضل
عظيم ، ولكنه شيء والأدب الخالص شيء آخر .

فكتاب المقالة الأدبية على أصح صورها ، هو الذى تكفيه
ظاهرة ضئيلة مما يعجب به العالم من حوله ، فيأخذها نقطة ابتداء ،
ثم يسلم نفسه إلى أحلام يأخذ بعضها برقاب بعض دون أن يكون

له أثر قوى فى استدعائها عن عمد وتدير ، حتى إذا ما تكاملت من هذه الخواطر المتقاطرة صورة ، عمد الكاتب إلى إثباتها فى رزانة لا تظهر فيها حدة العاطفة ، وفى رفق بالقارى حتى لا ينفر منه نفور الجواد الجموح ، لأن واجب الأديب الحق أن يخضع القارى كى يعمق فى القراءة كأنما هو يسرى عن نفسه المكروبة عناء اليوم أو يزجى فراغه الثقيل ، وهو كلما قرأ تسلل إلى نفسه ما شاع فى سطور المقالة من نكتة خفية وسخرية هادئة ، دون شعور منه بأن الكاتب يعمد فى كتابته إلى النكتة والسخرية ؛ فإذا بالقارى آخر الأمر يضحك ، أو يتأثر على أى صورة من الصور ، بهذه الصورة الخيالية التى أثبتها الكاتب فى مقالته ، وقد يعجب القارى : كيف يمكن أن يكون فى النفوس البشرية مثل هذه اللفتات والمحات ! ولكنه لن يلبث حتى يتبين أن هذا الذى عجب منه إنما هو جزء من نفسه أو نفوس أصدقائه ، فيضجره أن يكون على هذا النحو السخيف ، فيكون هذا الضجر منه أول خطوات الإصلاح المنشود .

وما دمننا نشترط فى المقالة الأدبية أن تكون أقرب إلى الحديث والسمر منها إلى التعليم والتلقين ، وجب أن يكون أسلوبها عذبا سلسا دفاقا . أما إن أخذت تشذب أطراف اللفظ هنا وترخرف

تركيب العبارة هناك ، كان ذلك متنافراً مع طبيعة السمر المحجب إلى النفوس ؛ هذا من حيث الشكل ! . وأما من حيث الموضوع ، فلا يجوز عند الناقد الأدبي أن تبحث المقالة في موضوع مجرد ، كأن تبحث مثلاً فضل النظام الديمقراطي أو معنى الجمال أو قاعدة في علم النفس والترتية ؛ لأن ذلك يبعدها عن روح المقالة بمعناها الصحيح ، إذ لا بد — كما ذكرنا — أن تعبر قبل كل شيء عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه ... ومن هنا قيل إن المقالة الأدبية قريبة جداً من القصيدة الغنائية ، لأن كليهما تغوص بالقارئ إلى أعماق أعماق نفس الكاتب أو الشاعر ، وتتغلغل في ثنايا روحه حتى تعثر على ضميره المكنون ؛ وكل الفرق بين المقالة والقصيدة الغنائية هو فرق في درجة الحرارة : تعلق وتنغم فتكون قصيدة ، أو تهبط وتنثر فتكون مقالة أدبية .

ولما كانت المقالة إنما تتكىء على ظاهرة مطروقة معهودة في الحياة اليومية لتنفذ خلالها إلى نقد الحياة القائمة نقداً خفياً يستره غطاء خفيف من السخرية ، ولما كانت كذلك تسلك في التعبير أسلوباً سلساً مشرقاً ، فقد يُظن أحياناً أنها ضرب هين من ضروب الأدب لا يدنو من القصيدة والقصة والرواية . والواقع على عكس

ذلك ، لأن أرفع الفن هو ما خفي عنه على النظرة العابرة ، فما أكثر من ينجح في كتابة القصة والقصيدة ! وما أقل من يجيد كتابة المقالة ؛ وشأن الذي يستخف بما تطلبه المقالة من فن كشأن الذي يظن أن الشعر المرسل أيسر من القصيد المقتفى ؛ ولعل عسر المقالة ناشئ من أنها ليس لها حدود مرسومة يحفظها المبتدئ فينسج على منوالها كما يفعل في القصة أو القصيدة .

إن الذي أريد أن أوكدّه مرة أخرى هو أن المقالة الأدبية لا بد أن تكون نقداً ساخراً لصورة من صور الحياة أو الأدب ، وهدماً لما يتشبث به الناس على أنه مثل أعلى ، وما هو إلا صنم تخلف في تراث الأقدمين . أما إن كان الفصل المكتوب بحثاً رصيناً متسقاً فسمّه ما شئت ، فقد يكون علماً ، وقد يكون فصلاً في النقد الأدبي ، وقد يكون تاريخاً أو وصفاً جغرافياً كتبه قلم قدير ، ولكنه ليس مقالة أدبية ، كما أنه ليس بقصيدة ولا قصة .

البرتقالة الى خيصة

لم أ كد أفرغ من طعام الغداء حتى جاءني الخادم بطبق فيه برتقالة وسكين ، فرفعت السكين وهممت أن أخزّ البرتقالة ، ولكنني أعدتها ، وأخذت أدير البرتقالة في قبضتي وأنظر إليها نظرة الإعجاب ؛ فقد راغني إذ ذاك لونها البديع وجمالها الخلاب ، وشممت لها أريجاً طيباً هادئاً ، ولحمت في استدارتها ومسامها نضارة عجيبة ، فأشفقت عليها من التقطيع والتشريح ؛ ثم نظرت إلى خادمي وقلت مبتسماً : لعل برتقالة اليوم ياسليمان لا يكون بها من العطب ما كان بتفاحة الأمس ؟ فقال : كلا يا سيدي فلن يكون ذلك قط ، فإن من خلال البرتقال التي يتميز بها عن سائر ألوان الفاكهة أن العطب يبدأ من خارجه لا من داخله ؛ فإن وجدت قشور البرتقالة سليمة فكن على يقين جازم بأن لبابها سليم كذلك ، فالبرتقالة بذلك أمينة صريحة صادقة ، لا تخفي بسلامة ظاهرها خبث باطنها ، ولا كذلك التفاحة ، التي قد تبدى لك ظاهراً نضراً لامعاً ، فإذا ماشقت جوفه ألفتته أحياناً مباءةً يضطرب فيها أخبثُ الدود ! فقلت : تلك والله ياسليمان خلة للبرتقال لم أكن أعلمها من قبل ، ولكنني أتبين الآن أنها

حق لاريب فيه ، وإنه بهذه الخلة وحدها لجدير من بائع الفاكهة
 أن يرُصّه في صناديقه الزجاجية ، وأن يلفه بغلاف من ورق
 شفاف حرصاً على هذه النفس الكريمة أن تُستذلّ وتهان في
 المقاطف والأقفاص ، فهو لعمري بهذه العناية أجدر من التفاح
 الخادع ... وماذا تعلم ياسليمان غير ذلك من صفات البرتقال ؟
 فقال : إنها لتُشبع الحواس جميعاً ، فهي بهجة للعين بلونها ، وهي
 متعة للأنف بأريجها ، ولذة للذوق بطعمها ، ثم هي بعد ذلك
 راحة للأيدي حين تديرها وتدحرجها كما تفعل ياسيدى الآن ،
 ولقد لبست البرتقالة معطفاً من جلد جميل ، فاذا ما انتهت إلى
 آكلها نَضَتْ عن نفسها ذلك العطاف الذي لا مسته الأيدي ،
 لتبدو لصاحبها بكرةً لم تفسدها جرائم السوء والمرض ؛ وهي فوق
 ذلك كله لم تنس أن تحنو بفضلها على الفلاح المسكين ، لأنها
 قررت منذ زمن بعيد أن تمنحه جلدتها ليملحه فيأكله طعاماً
 شهياً ، وليس بالقليل أن يظفر زارع البرتقال بقشوره مادام
 السادة قد نعموا باللباب ، فهو اعتراف بالجميل محمود على
 كل حال !

قلت : أفبعد هذا كله يستخف بقدرها الفاكهاني ، فيقذف

بها قذفاً مهملاً في الأوعية والسلال ؟! أفبعد هذا كله تقوّم
البرتقالة في سوق الفاكهة بلميمين ، وتقدر التفاحة بالقروش ؟!
تالله لو كنت موزع الأرزاق على هذه الفاكهة لغيرت معايير
التقييم وقلبها رأساً على عقب ، فأبيع هذا البرتقال الجيد بالوزن
والثمن الكثير ، والتفاح بالعدد والثلث البخس الرخيص ، فلست
أدرى لماذا لا يكون أساس التقويم ما تبديه الفاكهة من جودة
وإخلاص ؟!

قلت ذلك وكانت رنة الأسى في قولي تزداد شيئاً فشيئاً
حتى خشيت أن تنقلب إلى ثورة ، فلا يجد الثائر ما يحطمه غير
أثائه ، فأكلت البرتقالة وحمدت الله على نعمته ...

وهنا نقر الباب طارق نقرة خفيفة ، ثم دفعه في أناة وأقبل ،
وأخذ يدنو بخطى ثقيلة حتى اقترب من المائدة ، فألقى عليها
غلافاً مليئاً بأوراق ، ثم جلس ونظر إلى نظرة يشيع منها اليأس ،
وابتسم ابتسامة خفيفة ينبعث منها القنوط وخيبة الرجاء ، فسأله :
ماذا دهاك ؟ فأجاب : انظر ! وأشار بأصبعه إلى الحزمة الملقاة
قائلاً : لقد رفض الناشر أن يتعهد طبع الكتاب ، وهكذا ضاع
مجهود أعوام ثلاثة أدراج الرياح ! فسأله : وماذا قال الناشر ؟

فأجاب : زعم لى أن الكتاب جيد لا بأس بمادته ، ولكنه لا يتوقع له سوقاً نافقة ، لأن العبرة عند القارئ بالكتاب لا بالكتاب ، ألت ترى فى ذلك يا أخى عبثاً أى عبث ؟

قلت : هوّن على نفسك الأمر ولا تحزن ، فكتابك هذا برتقالة رخيصة ، وكم فى الأشياء ما هو جيد ورخيص ! وإن ذلك ليدكرنى بيوم أشقيت فيه نفسى بتحرير مقالة جيدة ممتازة ، وحملتها فخوراً إلى صاحب الصحيفة الأسبوعية ، وجلست أمامه أرقب كلمة التقدير تنحدر بين شفتيه ، فما راغى إلا أن أراه ينفذ مسرعاً إلى آخر المقالة يقرأ الإمضاء ، فالمقالات عند سادتنا أولئك تقرأ من أذيالها لا من رؤوسها ! ثم مط شفتيه مطا فهمت معناه ، ودفعها بين أوراقه حيث استقرت إلى الأبد ، وهأنذا أتبين اليوم أن مقالتي — ككتابك — برتقالة رخيصة ... فخير لنا وأقوم أن نكون تفاحاً معطوباً من أن تكون برتقالة جيداً لزيداً .

ألا ما أكثر بين الناس هذا البرتقال الرخيص ! فإن شئت حدثتك عن رجل يكيل له أولو الأمر المدح والثناء ، ولكن كما يمدح الآكلون البرتقال . يستمرثونه ولا يدفعون له إلا ثمناً قليلاً ، وإن شئت حدثتك عن رجل أراد الزواج ، فوجدت فيه

المخطوبة ماتت هي من خلق قويم ورأى مستقيم ، ولكنها نظرت
فإذا هو في سوق السلع بضاعة بخسة مزجاة ، فهزت كتفيها ومطت
شفتيها وقالت مُغضبة : ردُّوه ! إنه برتقالة رخيصة تُمدَّحُ ولا
ولا تُشترى ، وإن شئت حدثتك وحدثتك ...

فمتى ؟ متى يارباه يعرف الفاكهاني لهذه البرتقالة المسكينة
قدرها ؟ ...

ذات المليمين

لست أدري متى وكيف تسلك هذه القطعة من ذات المليمين
إلى نقودي ، ولكن الذى أدريه فى يقين هو أنها عمرت هنالك
شهرًا كاملاً ، تنتقل معى حيث أنتقل وتسير حيث أسير ، تحاول
جاهدة أن تجد سبيلها إلى الإنفاق ، وأنا أغلب طبيعة البشر
فأعاونها فى ذلك ، فما أجد لها السبيل ؛ ولعلك تدري شيئاً من هذا
الصراع الدائم القائم بين المال وصاحبه ، هذا يشد المال إلى
جيوبه شداً لا يريد له أن يشهد النور ، والمال يبتغى لنفسه أن
يتنفس الهواء الحر الطليق ، فيجرى دافقاً سيالاً بين أصابع
المتعاملين ؛ تارة تحسه أيد ناعمة لكنها تستخف به وتزدرية ،
وطوراً تظفر به أيد خشنه لكنها تتقبله قبولا حسناً وتكرم له
المشوى ؛ وإن ذلك لمن عجب الحياة الذى لا ينقضى ، فإن طاب
لك المأوى ألفت به الشوك والحسك مما يستذل النفوس ويوجب
الصدور ، وإن التمت لنفسك العزة وجدت مأواك خشناً
غليظاً ... ومهما يكن من أمر ، فقد ألحقت هذه القطعة تنشد
لنفسها الفكاك ، وغالبت نفسى وعاونتها على الإنفاق ، ولكن
كان لها القدر بالمرصاد .

فهاأنذا عند دار السينما أضرب بمنكبي مع الضاربين ، لعل
أجد السبيل إلى شباك التذاكر ، وقد ضربت حوله زحمة الناس
نظاقا يخنق الأنفاس ، وأين من هؤلاء القوم من يواتيه حظه
السعيد فيبلغ عتبة الشباك ؟ إن عيون المتزاحمين لتكاد تفتك به
من حسدها له على توفيقه فتكا ... وحان الحين وكنت أنا
المرموق بهاتيكَ العيون الفواتك ، ووقفت أمام الشباك أملاً
عارضته بمرفق ، ولكنى أسرعت الحركة والكلام لتطمئن
نفوس المنتظرين الناظرين فلا يحقدوا ، وضربت يدي في جيبى
وأخرجتها فقذفت بما أخرجت لبائعة التذاكر ، فإذا بها ذات
المليمين تتحرك على رخامة الشباك فى رعونة الأيفاع ...

وجلست فى مقهى مع طائفة من الأصدقاء ، لا تزال بينى
وبينهم حواجز الكلفة قائمة ، يحاول كل منا أن يستر من نفسه
الفقر والجهل والضعفة ، ليظهر الثراء والعلم ورفعة المكانة بين الناس
وجاء الخادم يتقاضانا ثمن ماشر بنا ، فتساقبت الأيدي مخلصه إلى
الجيوب — ياليتها تدرك أصحاب المسغبة بعشر معشار هذا الوفاء
لأصحاب اليسار ! — فهذا موقف من المواقف النادرة التى ينعم فيها
من يثبت للآخرين غناه ، وأخرجت كل يد ما فيها على المنضدة
فى سرعة متلهفة ؛ فقذف واحد بريال قوى العضلات ، صداح

الرنين ، ونشر آخر جنيتها من الورق بين أصبعيه ، وقذفت على المنضدة بما حملت يدي مع القاذفين ، فإذا بنصف ريال يأخذ مكانة لا بأس بها بين القذائف ، ولكن دارت إلى جانبه ذات الليمين فحطت من قدره وقيمه . وشاء الحظ العاثر أن تتعثر هذه القطعة المنكودة في دورانها حتى هوت إلى الأرض في رنين ضئيل فانحنى أحد الأصدقاء إليها وردّها إلى ، فأخذتها والجبين يتندى من الحجل ، فليس يشرف المرء في مثل هذه المواقف أن يضم جيبه شيئاً من ذوات الملايم !!

وكنتم أجالس فئة من رفاقي ، وأرادت المصادفة أن يدور بيننا حديث أخذ يشتد فيه الجدل ويشد حتى اضطرمت واشتعل ، فجاء زميل يجمع منا قدراً من المال نحسن به على خادم طاحت يد المنون بزوجته ، وعجزت دراها أن تقلقل الجثة من سريرها إلى القبر ، فجاءنا يطلب الإحسان — والموت يقسو على الفقير كما تقسو عليه الحياة ، فلا هو إن عاش حتى بين الأحياء ، ولا هو إن مات واجد سبيلاً ميسورة إلى مراقب الموتى ! — ودار الزميل الكريم يلتف من الأصابع ما امتدت به ، ومددت أصبعي ذاهلاً مشتغلاً بما أنا فيه من الجدل وقد كدت أنتصر ، وإذا بالزميل يبتسم لي قائلاً : لا بأس فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ،

وضحك الحاضرون جميعاً ، ونظرتُ فإذا بذات المليمين بين إصبعيه
فجذبتها في حركة عصبية سريعة ، وفي يتمم ألفاظ الأسف ،
وأخرجت ضعف ما أحسن به الآخرون لأعوض هذه السقطة ،
فمن أمثال هذه السقطات ترتسم شخصية الرجل في أذهان الناس !
حقاً إن العرق دَسَّاسٌ ومن تجرى في عروقه دماء النذالة
والضعة هيهات أن يُخفى عن الناس طويته ، فالنفس لا بد يوماً
مفضوحة بسلوكتها ، ولو حاولت أن تسدل على مكنونها ألف ستار
وستار ... فهذه القطعة ذات المليمين — فيما يظهر — قد استغلت
شبهها بذات القرشين استغلالاً دينئاً خسيساً ، وأشهد الله أنى من
إجرامها برىء ! فقد عَنَّ لى يوماً أن أسلك نفسى في زمرة الوجهاء
ولست منهم في غير ولا نفير — فركبت الترام في الدرجة الأولى
وجاء الكمسارى يجبى من الراكبين الأجور ، وكنت منه في
أقصى المقصورة ، فمددت له يدي بذات قرشين ، وأراد أحد
الراكبين أن يعيننى على ما قصرت عنه ذراعى ، فأخذ منى قطعة
النقد ليعطيها للعامل ، ورأيته ينظر إلى القطعة في يده ثم إلى ،
ولكن أدبه قد شاء له ألا يتدخل في أمر لا يعنيه ، وناولها إلى
بائع التذاكر ، فنظر إليها الرجل وقال : ما هذا ؟ فقلت : خذ
قرشاً وهات قرشاً ، فقال : عشنا ورأينا ذات المليمين تلد من جوفها

القروش ! فأدخلت يدي إلى نقودي في رعدة الخجل ، وأصلحت
الخطأ ، وقدمت للرجل المذرة بالابتسام والكلام ... وأردت
أن أثبت للجالسين براءتي — ووجهتي — فأحسنّت بذات
اللمين إلى فقير قفز إلى سلم العربّة يطلب الإحسان . وانتهى
بذلك تاريخ مؤلم طويل .

لكن الله الذي يضمّر الخير في الشر ، قد أراد لهذه القطعة
الخبیثة ألا يذهب عنى بلاؤها بغير درس مفيد ، بهرّني بناحية
من طبائع الناس لذیذة ومضحكة معاً .

فقد جلست بين جماعة ذات مساء ، وكان في الحاضرين
أديب شاب لم يتجاوز العشرين ؛ هو الذي حشر نفسه في زمرة
الأدباء حشراً بغير دعوة منهم ولا قبول . ولست أعلم من ماضيه
الأدبي إلا مقالة نشرتها له مجلة أسبوعية ، ولو اكتفى بهذا الحد
من الأحلام لكان جميلاً ، لأن الأحلام الحلوة التي تنفع صاحبها
ولا تؤذي الآخرين ليس بها بأس ولا ضرر ؛ ولكن الغرور أخذ
من هذا السخيف مأخذاً شديداً ، فإذا به لا يكتفى أن يكون
أديباً من الأدباء ، ولكنه — لو أنصف الزمان وعرف للناس
أقدارهم — في الطليعة منهم ، وشيوخ الأدب يقفون له بالمرصاد

لا يخلون بينه وبين النشر ، لأنهم ينفسون عليه ما وهبه الله من عبقرية ونبوغ !!... فقلت لنفسي : أليس هذا بين الناس قطعة من ذوات المليمين تستغل شبهها بذات القرشين ، فتدس نفسها بين الريالات وأنصافها دساً دنيئاً قد يخدع الغافلين ؟ !

وحدثني صديق أراد لنفسه الصدارة فالتحق بجمعية أعضاؤها طائفة ممتازة من علية القوم ، فخالطهم ، ولسكنهم لما يخالطوه ، وهش لهم وابتسم ، ولسكنهم تولوا عنه وعبسوا فجاءني شاكياً باكياً من لؤم الطباع الذي يؤلم ويؤشق ؛ فقلت له وقد تلقيت العبرة من ذات المليمين : أعلم أن في النقود ريالات ومليمات ، فإن وَجَدَتْ واحدةً من ذوات المليمين نفسها بين الريالات فظنت نفسها « عضواً » في هذه « الجماعة » فأصابها ما أساء إليها وأشقاها فليس الذنب ذنب الريالات المتكبرة ، لكنه ذنب ذات المليمين لأنها أرادت أن تكلف الأشياء ضد طباعها ، إذ أرادت — خطأ — أن تكون ريالاً .

شيطان الجرذ

حدثني صاحبي ، وكان ممن يفهمون عن الحيوان الأعجم ، أن جرذاً يافعاً كانت تسرى فيه الحياة مرحلة وثابة ، فكان كله قوة وكله أملاً وكله حركة ونشاطاً ، كأنما انسكب في أعصابه من الحياة أكثر مما تسع أعصابه ، فهو لا يستطيع — وإن أراد — أن يقر في مكان ساعة من زمان ، ولا يعرف من دهره إلا أن يسير في مناكب الأرض سعياً وإن لقي في سبيل ذلك حتفه . فما أرخص الموت عنده بالقياس إلى إثبات وجوده وتقرير ذاته ، حتى لا يطوى العمر دون أن يحسه الوجود . فإن هالك هذا الأمل العريض ينشده مثل ذلك البدن الواهن العاجز فابتسمت إشفاقاً وسخرية ، أجابك في مثل سخريتك بأن الوجود وجوده هو ، وبأنه من الغفلة أن يكون وألا يكون في آن معاً . فاضحك ما شئت فلن ينثنى الجرذ عن أن يكون في دنياه شيئاً كما أراد له بارئُه أن يكون !

وكان الجرذ وحيد أمه ، فرأت منه تلك الأم العجوز المحطمة ذلك الوثوب فلم يكن معناه في قاموس ألفاظها إلا النزق والطيش ، فلم تدخر وسعاً في الحد من نشاط وليدها وهو قرعة عينها وأملها

الذى يعيد لها الشباب بشبابه ، فكانت تستقبله فى لهفة الأم
الحدبة الحنون وتكيل له عظام السنين نصحاً بالآل ينصاع لدعوة
شيطانه الخبيث : ألا ترحم يا ابنه أمك المكتهلة ؟ ما ضررك أن
تهدا فى كمينك بين ذراعى وأمام بصرى ؟ لئن يكن قد أغراك
بالدنيا رعدا وبرقها ، فما ذاك يا ولدى إلا رعد خُلب و برق
كذوب ! وإن يكن قد أهاب بك صوت المجد ، فما ذاك يا بنى
إلا صيحة الشيطان فيك ، يأتى عليك الأمن فينصب لك حبال
الموت باسم المجد والخلود ! خذها كلمة أملتها تجربة السنين : لن
يغم الحى من حياته إن كان حكيماً بأكثر من الدعة والهدوء ؛
ما ذا تجدى على الدنيا بأسرها إن راعك سنور فدهاك ففجعى
فيك ؟ القناعة القناعة يا ولدى ، فأقل العيش مع القناعة خير
وفير ، وملك الأرض كلها مع الطموح الكاذب يسير حقير ! ...
عاد الجرذ يوماً من جولة المساء فاستقبلته أمه بهذا النصيح
الذى وقع منه موقع السحر ، فتسلل إلى مخدعه واندس فى فراشه
وهو يردد : نعم ما ذا تجدى الدنيا بأسرها إن راعى سنور فدهانى
فأوردنى مر الختوف ؟ ! صدقت يا أماه ، فلن أبرح الدار بعد
اليوم ، وحسبى من دهرى زاد يقيم الأود ويحفظ الأنفاس . إن
الشرف ليقضينى ألا أستمع لهذا الشيطان الملعون الذى يوسوس

لى كلما قبل المساء أن أتستريح تحت جناحه الأسحم وأسطو على ملك
غيرى من عباد الله ! كلا ! إن هذا الشيطان العاث ليزخرف لى
الرديلة بأكليل المجد الزائف ، ويشوه فى عيني الفضيلة فيسميها
لى استكانة وخنوعاً !

وأخذت الفأر اليافع سنةً من النوم وهو يغالب فى نفسه
هذه الأهواء المصطرعة المتنازعة ، فصوت أمه يدعوهُ إلى ملاينة
الدهر والرضى بأخشن العيش وأغلظه ليغتم السلامة ويجنب نفسه
الخطر ؛ ونعيم الدنيا يغريه بالمنازلة والجهاد حتى يظفر لنفسه بأمتع
العيش وأنعمه ، فلا ينبغي أن يقنع باليسير وغيره غارق إلى آذانه
فى الوفير الغزير ويقول هل من مزيد والحياة تعطيه ! ... ولم يكد
يفط الجرذ المذكور فى نعاسه حتى رأى فى نومه ، ويا لهول مارأى ،
رأى فى السماء سحابة حمراء أخذت تتشكل وتستوى حتى
استقامت أمام ناظريه كأنها مخيفاً ترتعش شفاهاه من الغيظ وتكاد
تقدح عيناه الشرر ؛ وأخذ يحدق فى الفأر الصغير وكأنما يرسل
فى نفسه من نظراته سهوماً مسمومة يرتعد لها الفأر ويرتاع ،
فقال الجرذ فى رجفة الجازع .

— من ؟

— أنا شيطانك الأمين .

— أعزب عني فلن أمتجيب لك بعد اليوم . إني أعوذ
منك بنصيحة أمي !

— بل يا أحمق لُدْ بقيادى من نصيحة أمك ... نصيحة ؟
إنها للضلال المبين ! كأنى بك قد أصخّنت إلى هذا الهراء الذى
لقنته أمك إياك منذ حين ! يا بنى لا تأخذنك ألفاظ الفضيلة
والحكمة الجوفاء . إنها سموم أنشأها لكم القوى إنشاء لتسكن
أعصابكم وتهدأ نفوسكم ، حتى إذا ما تداريتم فى بطون جحوركم
أخذ يتقلب فى نعيمه ويتمرغ فى أسباب ترفه . لماذا يكفيك من
عيشك كسرة خشنة ولغيرك أطيب الآ كال ؟ أأست تؤدى
للحياة واجب الحياة على أتم نحو وأكمل صورة ؟ فقم وانهض إلى
الدنيا العريضة مجاهداً حتى تنزع من مقلب الدهر حياة مريئة
فيكون لك بها نشوتان ، نشوة الغنيمة نفسها ونشوة الظفر
بالغنيمة ، قم واملأ الدنيا ضجة وصياحا حتى يعترف لك الوجود
بالوجود .

— ولكن السنور الأشهب يحول فى البيت فيملأ
أبهاءه بموائه ...

— تبا لكم يا معشر الجرذان ! إنكم لا تنفكون تضعون
لأنفسكم الحوائل تبريراً لعجزكم أمام ضمايركم المعتلة . إن هذا

السنور نفسه لداعية لك أن تنهض وتسرى في أنحاء الدار ، حتى
إذا ما ظفرت ببيغيتك صحتَ في استكبار الظافر ، تلك بيغيتي
أصبتها وأنف السنور في الرغام ... وهل يلذ السعى ويطيب
الجهاد بغير ذلك العدو العنيد تغالبه فتغلبه ؟ أ كنت تريد أيها
الجندي الخائر أن تحارب في الموقعة بغير أعداء ثم تزعم لنفسك
النصر والظفر ؟

— إن لكلامك يا شيطاني لسحراً أبلغ السحر حتى لكأن
أفذاك يا لعين شواظ من نار تلتهب أواراً في حشاي ... لكم
وددت أن أتابعك لولا أن تقول أمي ويقول الجرذان : لقد تابع
الغر شيطانه المرید !

— إن فعلوا فقل لهم : لهذا الشيطان صوت الحق والحياة ،
وإنكم لدعاة الجمود والموت ، فشيطاني أحق أن أتبع . إن مايشير
به الكهول يا بني باسم الحكمة خدعة باطلة ، وإسمه الصحيح
هو الجبن والخور . أفأنت بحاجة إلى أن أذكرك بأنه لن يصيب
نعيم الدنيا إلا الفاتك اللهيج ؟ هذه دول الأرض جميعاً فانظر أيها
الظافر ، أمي التي خشيت وثبة النمر فقبعت في عقر دارها أم من
تممرت فوثبت فكان لها من رقاع الأرض أوفر الحظوظ ؟ إنه

لخير لك ألف مرة أن تستأسد يوماً ثم تموت من أن تعيش في
هذا الخمول قرناً كاملاً .

فدارت نحوه الفأر واشتعلت حماسته ، ونفض الفراش من
حوله وأقسم ألا يستسلم بعد الساعة لدعوة أمه العجوز . وانتفض
انتفاضة عنيفة استيقظ على إثرها من نعاسه ، واستوى جالساً في
مخده يستعيد ما أملاه عليه شيطانه في حلمه ، وإذا به كلمة الحق
والقوة والحياة ، ثم جهر في صوت مسموع : نعم لن أصبر على هذا
العيش الفليظ لحظة واحدة ! وسمعت أمه القول فارتعدت في
نومها فازعة :

— ماذا تقول يا بني ؟

— وداعاً يا أماء ، فانعمي أنت بأنفاسك الذليلة لتغنمي
العافية ، أما أنا فلن أدع نحواً من أنحاء البيت إلا ارتدته ونعمت
بما فيه ، وهنيئاً بعد ذلك بمخلب القط .

وتسلل الجرذ إلى حجر الدار وأبهائها ، فهذا طعام شهى
يا كله وذاك شراب سائغ يستقيه ، فإذا أثقل الكرى جفنيه
تخير لنفسه بين أردية الدمقس مرقداً وثيراً . وتعاقبت الأيام
والليالي والفأر الصغير النشيط ناعم في عيش هنيء مرىء ، حتى
كان مساء مشثوم ، وإذا بمخلب السنور يهوى في ظلمة الليل

فيغرس أظافره في الجرذ الممتلئ ،، ويصيح هذا صيحة ترن
أصداؤها في جحر الأم فتأتي لاهثة جازعة لترى وليدها ووحيدها
جريحا طريقا أمام القط الكامر .

— يا ويلتاه ! لقد كان ماخفت أن يكون .

— غنى يا أماءه للَمُوت بعد نعيم العيش أشهى من الحياة

في ظلمة الجحور .

ثورة في خزانة الكتب

شاءت لى المصادفة البصيرة — والمصادفة قد لا تكون
عمياء — أن أقرأ فى ليلة واحدة فكرتين فى كتابين مختلفين ،
لا علاقة لإحدهما بالآخرى ، ولكنهما — على ما بينهما من
تفاوت بعيد — تعانقتا فى ذهنى ، واتحدتا فتكوّن منهما ازدواج
عجيب ؛ أما الأولى فهى أن آباءنا من المصريين الأقدمين كانوا
ينسبون للأسماء المنقوشة على التماثيل والتوايت قوى سحرية
عجيبة ، تكاد تدنيها من الأحياء ؛ فهم لم ينقشوا أسماء موتاهم على
تلك الأصنام الحجرية للزخرفة والزركشة والزينة ، بل ليكون
لها فى جوف القبور قدرة أن تصيح للروح فتتهدى بصياحها إلى
الجسد الراقد لتسرى فيه الحياة من جديد . وأما الفكرة الثانية
فكانت تعليقا لكاتب حدث على رأى فيلسوف قديم فى
ارستقراطية العقل وحلولها محل أرستقراطية المال . إذ أراد أن
يلقى بزمام الأمر فى الدولة إلى من تثبت لهم الكفاءة العقلية وألا
ينحلى بين الأدينين فى قدرتهم الفكرية و بين مناصب الدولة العليا ؛
فليس أشد عبثاً فى هذه الحياة من أن يحرص الإنسان ما وسعه
الحرص على أن يختار أحسن الخذائين لإصلاح خذائه ، وأن

ينتقى أحسن السائسين لتدريب جياده ثم لا يعبا بمن يتولى
إصلاح دولته !

فرغت من القراءة فأعدت الكتابين إلى خزانة كتي ،
وليس فيها سوى بضع مئات قليلة منها ، تتفاوت أقدارها العلمية ،
من كتب في المطالعة والهجاء إلى مجلدات في الفلسفة والعلوم ،
رصت في رفوف الخزانة الثلاثة رصاً يقع بين القوضى والنظام ؛
أعدت الكتابين وأويت إلى مخدعي ، فسرعان ما استغرقني
نعاس دافئ جميل ، ما كان أحلاه بعد يوم مليء بالعمل والعناء ،
وسبحت في عالم الرؤى فماذا رأيت ؟

رأيتني حاكماً في دولة أصرفُ أمور شعبها ، لعلها أن تكون
أعجب ما شهدت الأرض من دول ، ولعله أن يكون أعجب ما ظهر
على وجه الدهر من شعوب ! أما دولتي فمداها بناء ضخمة ذو طبقات
ثلاث ، لم ألبث أن أتبين فيه خزانة الكتب ضخمت في عالم الأحلام
ثم ضخمت حتى أصبحت هذا البناء الفخم الجميل ؛ وأما رعيتي
فكانت بضع مئات قليلة من أمساخ لا تطمئن لها العين ، ما كدت
أبشر شئونها حتى أدركت أنها كتي قد أصابها في أضغاث الأحلام
هذا المسخ والتشويه ؛ فقد رأيتها كائنات حيه ليست كالتى عهدت
من كائنات ، يتألف واحدها من لسان غليظ طويل في فم ضخمة بشع ،

ولكل منها جناحان بعضها يستطيع بهما الطيران وبعضها لا يستطيع؛ وأحسب أن اللسان قد غلظ فيها وطال ، لأنها لم تستطيع من أول الدهر سوى بضاعة الكلام ، فتطور عضو الكلام وضمرت سائر الأعضاء ؛ وأعجب ما فيها أن خواطرها مكتوبة في عقد من أوراق الشجر يتدلى من عنقها ، بحيث تستطيع العين رؤيتها ، وهي حين تتكلم تهز من صدرها تلك الخواطر المكتوبة هزاً تتحول به من الكتابة إلى الصياح .

نظرت إلى دولتي وقلبت الرأي في ريعتي ، فشاع في نفسي الأسف والامسى لسوء حالها ، وكاد يقعدني اليأس عن محاولة إصلاحها فقد خيل إلى أن فوضاها فوق كل إصلاح ؛ كانت دولتي مقسمة ثلاث طبقات ، عليها تسكن الطابق الأعلى ، ودنياها الأدنى ، وأوساطها في الوسيط ؛ وقد راعني ذات يوم أن أرى أن أطيب ما تنتج البلاد من خيرات ينصرف إلى الفئة العالية وهي لا تعمل ، وأما الحثالة فإلى الفئة التي تكدح وتشقى ، وهي التي سفلت في بناء الدولة حتى استقرت في قاعها ، فقلت لنفسى : لا حييت بعد اليوم في الدولة حاكماً إذا أنا أغضت العين على هذه النقائص والعيوب ، ولن تذهب ثقافتى عبثاً ، فسأهتدى بآراء المصلحين جميعاً ، من مضى منهم ومن حضر ، لأستأصل

من جسم شعبي كل داء دفين .
 وآثرت قبل البدء في الإصلاح أن أخالط رعيتي عن كسب
 وأحادثهم ، لعلني أعلم كيف علا من علا ، وسفل من سفل ، فإن في
 ذلك لبداية وهداية . فصعدت لتوؤى إلى الطابق الأعلى ، فإذا
 فئة من شعبي تتقلب في ألوان النعيم ، أسدلت من دونها الستر
 لتتقى مر النسيم ولفحة الضوء ، أجنحتها من الخمل وأوراقها
 المتدلية من الحرير ، وقد خط عليها ما خط بماء الذهب ، فأخذت
 أسأل هؤلاء واحداً بعد واحد : ما صنع حتى جاز له أن يصعد
 هذا المرتقى ؟ فأجاب أولهم : إن جواز صعوده هو أن اسمه المطبوع
 على صدره له رنين قوى إذا نطق به ، وهو مكتوب بالخط الضخم
 العريض ؛ فعجبت له كيف يمكن أن يكون رنين الأسماء وضخامة
 الحروف من أسباب العلاء ! لكنه أجاب بأن تقاليد الدولة منذ
 عهد بعيد قد أباحت لمن يعلو صوته على سائر الأصوات أن يتسع
 صوته ، فيأخذ من أمته مكاناً عالياً ممتازاً ، ولا عبرة بما في صياحه
 هذا من خطأ أو صواب ثم سألتني : ألسنت ترى — يا صاحب
 الجلالة — ما بين الصوت والصيت من علاقة في اللفظ وأضاف
 قائلاً : إن علاقة اللفظ عند الفلاسفة دليل على روابط المعنى ..
 فسألت آخر ، فأجاب بأن جواز صعوده هو أن جناحيه وما يتدلى

على صدره من أوراق صنعت كلها من مادة جيدة مصقولة ،
فعجبت له كيف تكون نعومة الملمس جواراً للصعود ! فقال : إن
تقاليد الدولة منذ أقدم العصور تعنى بظواهر الأشياء دون بواطنها
لأن فيلسوفاً قديماً علمهم أن الإنسان لا يدرك من الأشياء غير
الظواهر ، وأما حقائق الأشياء فعلمها عند علام الغيوب . وسألت
ثالثاً ، فقال : إنه مطبوع في بلاد الإنجليز ، فعجبت له كيف
يمكن أن يكون مكان الطباعة بذى شأن ، ما دامت الأحرف هي
الأحرف والكلام هو الكلام ! فأجاب بأن تقاليد الدولة من
أقدم عصورها تقتضى أن يكون لذلك اعتبار عند قسمة الأقدار .
وسألت رابعاً ، فقال : إنه ينتمى في نسبه إلى كاتب مشهور
معروف ؛ فعجبت كيف يمكن أن تكون النسبة وحدها كفيلاً
له بالصعود فأجاب بأن تقاليد الدولة منذ فجر تاريخها قد جرت
بأن يكون لأصحاب الأنساب في الدولة أكبر الأُنصاب . وسألت
خامساً وسادساً وسابعاً ...

هبطت السلم مسرعاً لا ألوى على شيء ، وأنا أوشك أن
أصبح : كلا ، لن يكون لمثل هذا العبث وجود في دولتي بعد
اليوم ... إن شيخاً في الطابق الأسفل قيل إن به مساً من جنون
قد جاءني منذ أيام يقص على قصة الإصلاح الذي يريده لأمتي ،

فأعرضت عنه وتوليت ، وما كان ينبغي أن أفعل ، فما يدريني ؟
 لعله يهدي ، فما يفصل الجنون عن النبوغ إلا حاجز رقيق ؛
 وقصدت إلى الشيخ حائقاً مغضباً ، فوجدته يروح ويغدو ولا يكاد
 يستقر به المكان ، فناديته : ادن مني أيها الشيخ وأعد علي سمعي
 ما قصصته بالأمس ، فقال : أردت لأمتك الإصلاح — يا صاحب
 الجلالة — فما أعرتني أذنًا مصغية ولا قلباً واعياً والأمر هين
 لا عناء فيه : أريد أن تسود في الدولة أرستقراطية العقل مكان
 أرستقراطية المال وغير المال من الأعراض التي لا تمت إلى طبيعة
 الإنسان في شيء ؟ فهذا الفرد وهذا وذاك ممن تنطوي صدورهم
 على تفكير ناضج سليم وتتألف خواطرهم التي نقشت على صدورهم
 من فلسفة وعلم رصين ، لهم من الدولة المكان الأعلى ؛ وهذا الفرد
 وهذا وذاك ممن تغلب عليهم العاطفة فينطقون بآيات من الشعر
 والنثر ، لهم من الدولة المكان الأوسط ، لأن العاطفة عندي في
 منزلة دون العقل الخالص ، ثم أحشر في الطابق الأسفل من
 رعيتك أصحاب العقول الفارغة والصدور الخاوية ، مهما يكن حظهم
 من ضخامة عنوان وجمال أوراق . فلم أجد في فعل ما أشار به الشيخ
 شيئاً من العسر ، إذا استثنيت بعض نظرات ملتبهة حداد رمقني
 بها أفراد الطبقة الممتازة حين أنزلتهم من الدولة أسفل سافلين .

وانتبذت بعد هذا الانقلاب مكاناً أستريح وأزهو ، ولكنى
لم أكد آخذ من الراحة نصيباً ، حتى سمعت فى أرجاء الدولة
ضجة وصياحاً ؛ فهذا صوت شئ يتحطم ، وتلك صرخة إنسان
يتألم ، فسرت فى جسمى فشريرة الخوف ، وأرهفت الأذن
فإذا بى أتبن كلمات تنبئ بثورة الشعب ، فجمدت فى مكانى
لا أريم حتى هدأت العاصفة ، ثم طُفْتُ بأسفل الطوابق أول
الأمر ، فإذا بأصحاب الفكر وأرباب الأدب ممن أصابتهم الرفعة
فى الانقلاب الذى قمت به فى تنظيم الدولة ، قد أعيدوا إلى دركهم
الأول ، بعد أن تكسرت منهم أجنحة وقطعت السنة
وتمزقت أوراق ...

فجلست محزوناً واعتمدت رأسى على كفى ، وتمتمت فى
يأس : لم يأت بعد أوان الإصلاح لأمتى ، فلا بد أن تنقضى قرون
أخرى يعلو فيها أصحاب الظاهر البراق ويسفل أصحاب الحق المبين
واستيقظت فإذا موعد العمل قد حان ، فارتديت ثيابى مسروعاً
وهرولت إلى العمل مسرعاً لأرد عن نفسى عادية الأذى .

خطيب هايد پارک

[أهديها إلى من ضل سواء السبيل]

أمسكت السماء عن المطر بعد شهر كاد أن يكون المطر فيه
موصولاً في لندن ، فذهبت أستنشق الهواء في « هايد پارك » .
وهايد پارك متنزه فسيح يقع في قلب هذه العاصمة الكبرى ،
له خصائص يتميز بها في أذهان عارفيه ، منها هؤلاء الخطباء عند
مدخله ، خمسة منهم أو ستة يرتقون المنابر ليخطبوا في الدين أو
السياسة أو الاجتماع من شاء أن يستمع إليهم من رواد الحديقة ،
فهؤلاء يتحلقون حول الخطباء تفريجاً عن أنفسهم وإزجاء
لأوقات فراغهم ، وما أقل في هذه الدنيا من يفرج عنك لوجه الله
لا يريد منك جزاء ولا شكوراً ؛ فإن أردت لنفسك لهواً
وفكاهة فاقصد سوق الخطباء في هايد پارك لتقرن حماسة الخطيب
باستخفاف المستمع .

قصدت الحديقة أريد الهواء النقي ، ولا أريد حديث
الخطباء ، فقد كانت غايتي غذاء الرئتين لا غذاء الرأس ؛ فالرأس
عندئذ كان في تخمة مما يحمل من غذاء ؛ لكن ما أكره ما ترغمك

الظروف على غير ما تريد ؛ فقد استوقفني بين الخطباء منظر عجيب :
خطيب من هؤلاء رأيته قائماً على منبره يخطب ولا من سميع ! لم
يقف أمام الرجل إنسان واحد يستمع اليه ، ومع ذلك مضى المسكين
في خطابه يرفع صوته ويخفضه ، ويشير يميناً وتارة ويسراه طوراً ،
وينحنى ويستقيم ، ويضرب النضد الصغير الذي أمامه بيده ،
مقبوضة مرة مبسوطة أخرى ! دنوت منه ووقفت إزاءه أنظر
اليه ، وما هو إلا أن طاف برأسي خاطر عجيب ، إذ خيل إلى أني
أنظر إلى نفسي في مرآة . وإنها لفرصة نادرة الوقوع أن تجد
لنفسك مرآة تصورها لك فتهديك بعد ضلال ؛ فما أهون أن
تنظر إلى وجهك في مرآتك لتصلح ما اختلط من شعرات رأسك
وتشذب ما هاش من شاربك ؛ لكن أني لك مرآة تجلو أمام
ناظريك ما خفي من شعاب نفسك لتصلح منها ما اعوجج إن كانت
بذات عوج ، أو لترهى بها إن كانت قيمة بالإعجاب ؟ رأيت في
ذلك الخطيب مرآة لنفسى ، وأخذت دقة الصورة تزدد في عيني
جلاء ووضوحاً ، فابتسمت ثم ضحككت في نبرة مسموعة .

قال الخطيب : ما يضحكك يا صاحبي ؟

قلت : يضحكني أننا شبيهان .

قال : شبيهان ؟

قلت : نعم وليس الشبه في هيئة الجسم ، فانت انجليزى
أصفر الشعر أزرق العينين أحمر البشرة ، وأنا مصرى أسود الشعر
والعينين أسمر اللون ، لكننا شديهان ؛ فكلانا يبعثر في الهواء
طاقة وهبه الله إياها لينفقها في الجرى والقفز واللهو واللعب ، أما
هواؤك فطلق نقيته ، وأما هوائى فخبس تحده الجدران ؛ كلانا
يبذل الجهد فيذهب الجهد أدراج الرياح .

عجيب هذا الضوء الذى تلقىه تجارب الأيام على القول
المكرور المعاد ! فقد تردد العبارة الواحدة ألف مرة وتحسبك قد
فهمت معناها لأنك عرفت معانى ألفاظها كما تشرحها القواميس
فاذا بك تنطق بها مرة أخرى فتلمس فيها حياة نابضة لم تعدها
من قبل ، فكأنما أشرق عليك منها معنى جديد ، لأنها في هذه
المررة كانت قطعة من حياتك ، وقبساً من روحك ، ولم تكن
ألفاظاً مرصوفة يقولها الناس فيرنّ صداها بين شفتيك ؛ فكم
رددت مع الناس قولهم « لا فى العير ولا فى النفير » ولم أكن
أدرى أننى إنما كنت أرددها ترديد الببغاوات عن غير فهم
حتى صحیح ، حتى قلتها منذ قريب فأحسست لها هزة تشيع في
وجودى ، وأدركت أنها لم تعد مثلاً يقال ، بل أصبحت جزءاً
من صميم الحياة ؛ وحدث مثل ذلك حين قلت لصاحبي الخطيب

إننا نبذل الجهد فيذهب الجهد أدراج الرياح !
رحمك الله يا « سيرفانتيز » ، ترى من ذا كنت تعنى إذ
صورت لنا « دون كيشوت » يمتطى جواده الهزيل الكسيح ،
ويحمل سيفه المحطم المثلوم ، ويجوب الأرض محارباً ليعذه الناس
فارساً من الفرسان ؟ فيأتى « دون كيشوت » إزاء طواحين الهواء
ويخيل له الوهم أنها جماعة من الأعداء ، ويسل سيفه ويظل
يضرب فى الهواء ، ثم يغمد السيف منتفخ الأوداج من كبرياء ،
لأنه فتك بالعدو وصرعه وأرداه ! من ذا كنت تعنى حين صورت
لنا هذا الفارس الحالم الذى يحارب فى وهمه ، وينتصر فى وهمه ،
والناس من حوله لا يرون حرباً ولا نصراً ؟

أرأيت يا خطيب الهواء سيارة أمسكها الوحل فأخذت
عجلاتها تدور وهى فى مكانها لا تتحول ؟ لو كانت هذه السيارة
لتنطق لزعمت لك أنها طوت من الأرض فراسخ وأميالا ، لأنها
تحس فى حرّ أنفاسها حرارة الجهاد ، وتحس عجلاتها تدور ، فهيهات
أن يقع فى ظنها أنها تدور فى غير سير إلى أمام ، إيماناً منها بأن ذلك
ضد طبائع الأشياء ، وما تدرى أن هذا الوحل الذى يأذن لعجلاتها
أن تدور ثم يمسك جسمها عن السير هو أيضاً من طبائع الأشياء !
نحن أيها الخطيب شبهان ، كلانا رأى الهدف وأخطأ سواء

السييل ؛ أراد لنا نحس الطالع في صبابنا أن يخذعنا المعلمون ، والمعلمون أحيانا يخذعون ، ويبدشرون بما لا يؤمنون ، فأوصونا أن نجعل من النجم غايتنا ، فأبت علينا الأمانة البلهاء إلا أن نكدّ ونكدح لنبلغ النجم . وفاتقنا الحيلة التي يدركها الألو ف إدراك البدهاة في غير عسر ولا عناء ، وهي أن نلتمس النجم في صورته على صفحة الماء ، وأولو الأمر لا يفرقون بين النجم وصورته ، فكلاهما في أعينهم لامع لألاء ؛ وبربك لا تقل إننا إذ نروم النجم في سمائه تستقيم منا الظهور ، وتشرئب الأعناق ، وتشمخ الأنوف ، أما إن أردنا الصورة فلا بد من « انحناء » ، فتلك حكمة القدماء ، والحكمة إنما تسير وسائل النقل في تطورها ، فلا ينبغي أن تكون حكمة الطائفة مثل حكمة « الحمار » .

قال « مكياثلى » لأميره ناصحاً : ليس المهم أن تكون رحيماً بشعبك ، إنما المهم أن يقال عنك إنك رحيم ، فاقس ما شئت ، وابطش بمن شئت ، لكن ليكن لك في ذلك فن يخذع الناس عن حقيقة نفسك ، فإذا أنت في ظنهم الأمير الذي يحنو على البائس ويعطف على المحروم ؛ ألقى مكياثلى درسه على أميره ، وكان درساً في سياسة الملك ، فلققه من فم أصحاب الفطنة وجعلوه دستور الحياة ؛ فليس المهم أن تكون ذا علم ، وإنما المهم أن يعدك الناس

بين العلماء ، وكم من رجل رأيت يتربع على كرسيه رزينا رصينا
وعلى وجهه مخايل العلم والحكمة ، وقد علّق فوق رأسه قيثارة فخمة
ضخمة مشدودة الأوتار ؛ فتأتى إلهة الشهرة فتربت على كتفه
وتمضى فخوراً بابنها النجيب ، ولاتنى تنشر ذكره في طول البلاد
وعرضها ، لأنه « لو » عزف كان خير العازفين ؛ فلئن جمدت
الألحان على أوتار قيثارته الآن ، فما أيسر عليه أن يذيعها نغما
شجيا طروباً إن أراد ؛ وقد ضيّقتُ بفعلتها ذات يوم فصحتُ
بها : يا إلهة الشهرة لاتصدقهم ، إنهم لا يعرفون لأنهم لا يعرفون
لكنها ازورت عني وأدارت إلى قولي أذنا صماء ؛ وما أكثر
ما تخرج أولئك الإلهاتُ صدرى ، لأنهن ينخدعن كما
ينخدع البشر !

نحن أيها الخطيب شبيمان ، كلانا يبذل الجهد في غير موضعه
فيذهب الجهد أدراج الرياح ؛ القيمة كلها في اختيار الموضع الملائم
لجهدك المبذول ؛ فالمسافر الذى كان يقطع الصحراء جائعا فوجد
كنزاً من الجواهر ، لم يعدل عنده هذا الكنز النفيس رغيفاً من
الخبز ! لم تعد للجوهر نفاسته لأنه أخطأ المكان الصحيح ؛
تسعة أعشار الرزق في التجارة ، والتجارة هى أن تضع السلعة في
مكان تباع فيه ؛ إن عبارة واحدة من خطبتك تلقى في مجلس

النواب خير من مائة ألف خطبة تلقىها في « هايد پارك » ؛
وكتاب واحد أقرؤه أنا في « هايد پارك » — أفهمه أو لا أفهمه
— خير من مائة ألف كتاب أكتبه في حديقة قصر النيل .

قال : وما قصر النيل ؟

قلت : حديقة في القاهرة ، وطنى الحبيب .

قال : ولماذا ؟

قلت : لا تسلى لماذا ؛ لماذا يكون الماء في النهر ماء فإذا
انتقل إلى خزان القاطرة تحوّل بخاراً يشد العربات ؟
قال : لأنه جاور نار الأتون فاستفاد .

قلت : وقارئ الكتاب في هايد پارك ربما استفاد لأنه جاور
الغيد الحسان اللأئى ليس لهن أضراب في قصر النيل ؛ أو ربما
استفاد لأنه استمع إلى خطباء هذا المكان ، أو من يدرى ؟ لعل
مذهب التفاوت بين الأجناس يلعب هنا لعبته ؛ فلما ساد اليونان
كانوا هم الأحرار وغيرهم العبيد ، ولما ساد العرب كانوا هم الأشراف
وغيرهم عَجَمَ ، ولما ساد الآريون حَقَّتْ اللعنةُ على أبناء سام ؛
أفلا يجوز أن يكون أصحاب السلطان من فصيلة هايد پارك ،
فكانوا هم العلماء وغيرهم في الجهالة يعمهون ؟ وبربك لا تقل إنه

لا ينبغي أن يكون لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى ، فتلك
حكمة القدماء .

العبرة يا صديقي في اختيار المكان الصحيح ، فالوسخُ وسَخٌ
لأنه مادةٌ أخطأت مكانها ، ولو اختارت مكانها الملائم لشرُفت
كما تشرفُ سائر المواد ؛ فهذا الغبار على منظاري قذارة يجب أن
تزال ، ولو اختار الغبار وجه الأرض مكانا لا اختار موضعه وما
عرض نفسه لألوان الهوان ؛ وقل مثل ذلك في الرجال ، فزَيْدٌ
في جماعة من الناس مجلبة للصغار ، ولو انتقل زيد إلى حيث ينبغي
له أن يكون لأصبح لأقرانه مدعاة للفخر .

على أن القَدَرَ قد يكون له فضل عظيم ، فلوح الزجاج إن
خلا من الغبار خفي عن العيون فَصَدَمَهُ السَّائِرُونَ وهشموه حطيا ،
وإن أردت له أن يُرَى فلا مندوحة لك عن شيء من العكر فيه ؛
إذ ليس من حَقِّك أن تكلف الناس ما لا يطيقون ، فلا بصرهم
حدودٌ فرضتها عليهم الطبيعةُ فرضا ليس لهم عنها محيص ؛ فامزج
صفاءك بالعكر ، ولا تقل إن الصفاء خير من القَدَر ، فتلك
حكمة القدماء .

جنة العبيط

أما العبيط فهو أنا ، وأما جنتي فهي أحلام نسجتها على مر
الأعوام عريشة ظليلة ، تهب فيها النسائم علية بليلة ، فإذا ما خطوت
عنها خطوة إلى يمين أو شمال أو أمام أو وراء ، ولفحتني الشمس
بوقدتها الكاوية ، عدت إلى جنتي ، أنعم فيها بعزلاتي ، كأنما أنا
الصقر الهرم ، تغفو عيناه ، فيتوهم أن بغاث الطير تحشاه ، ويفتح
عينيه ، فإذا بغاث الطير تفرى جناحيه ، ويعود فيغفو ، لينعم في
غفوته بحلاوة غفلته .

أنا في جنتي السمع الكريم الذي ورث الجود عن آباء
وجدد ؛ فمن سواي كان أبوه يذبح الجمل والناقة ليطعم كل ذي
مسغبة وفاقة ؟ من سواي إلى حاتم ينتمي ، وبهذا العنصر الكريم
يحتمي ؟ وهل كانت صفات آبائي وأجدادي لتذهب مع الهواء
هباء ، أم هي تجري في العروق مع الدماء دماء ؟ هاأنذا أحنو على
البائس عطفًا وإن كنت لا أعطيه ؛ وأذوب على المصاب أسى
وإن كنت لا أواسيه ؛ وتبت يدا حاسدي يقول إن أصحاب الحاجة
عندي يستجدون ولا عطاء ، والمعوزين أ كففهم تنقبض على هواء ،
فقلب عطوف خير للفقير من قرش إنفاقه سريع ، وفؤاد ذائب

أبقى له من عون لا يلبث أن يضيع ؛ إني أعوذ بالله من إنسان يفهم الإحسان بلغة القرش والمليم ؛ تلك لعمري مادية طغت موجتها على العالم كله ، ولولا رحمة من ربي ، ورشاد من قادتي ، لكنت اليوم في غمرتها من المفرقين ؛ لقد أقفر العالم حول جنتي فلا عطف ولا عاطفة ، واستحالت فيه القلوب نيكلا ونحاسا تعرفها بالزنين لأنها لم تعد من لحم ودم ! أهكذا يُقوّم كل شيء بالمال حتى إحسان المحسن وعطاء الكريم ؟ فالقرش والمليم هو معنى الإحسان في الغرب الذميم ، الذي غلظت فيه الأكباد ، كأنما قدت من صخر جماد . كم جامعة عندهم أنشأها ثرى ؟ وكم دارا أعداها للفقير غنى ؟ كم منهم يلبي النداء إذا ما دعا الداعي بالعطاء ؟ لا ، بل إن هذا الغرب المنكود ، ليسير إلى هاوية ليس لها من قرار إذ هو يسعى إلى محو الفقر محوا ، حتى لا يكون لفضيلة الإحسان عنده موضع ! فاللهم إني أحمدك أن رضيت لى الإسلام ديننا ، وجعلت لى الإحسان ديننا .

أنا فى جنتى العالم العلامة ، والخبر الفهامة ؛ أقرأ الكف وأحسب النجوم ، فأنبئ بما كان وما يكون ؛ أفسر الأحلام فلا أخطئ التفسير ، وأعبر عن الرؤيا فأحسن التعبير ، لكل رمز معنى أعلمه ، ولكل لفظ مغزى أفهمه ؛ استفسرنى ذات يوم حالم

فقال : رأيت — اللهم اجعل خيراً ما رأيت — رأيتني أنظر إلى كفى ، فيغيظني من الأصبع الوسطى طولها فوق أخواتها ، ولا أحتمل الغيظ ، فأتى من مكتبتى بمبرة مرهفة ماضية ، وأجد منها ما طال ، وألقى بالجزء المبتور في النار ؛ وما هو إلا أن أرى شبهاً مخيفاً يخرج من بين السنة اللهب ، كله أصابع ، أصابع في كتفيه ، وأصابع في جنبيه . وأصابع في قدميه وأصابع من رأسه ومن بطنه ومن ظهره ؛ والأصابع كلها من ذوات الأظفار ، حتى لكانها الخالب ، أخذت تنقبض وتتلوى ، وتنبسط وتتحوى ، تريد أن تنال منى لتفتك بى ؛ فتملأكنى الفزع ، والرعب والجزع ، وكلما اقتربت منى تهقرت حتى بلغت الجدار ، ولم يعد بعد ذلك مهرب ولا فرار ؛ ثم رأيت دماً تسيل دفاقة من إصبعى الجريح ، فصحت وصحوت .

فأطرقت قليلاً ثم أجبتة قائلاً : لقد أضلك الشيطان الرجيم فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وكفارتك صيام عام وإطعام ألف مسكين ؛ ولولا أننا نريد بك اليسر ولا نريد العسر لكان جزاؤك ما لاقى « برومثيوس » عند اليونان فيما تروى الأساطير فقد أراد الآلهة أن يستأثروا بالعلم ونوره ، وأراد « برومثيوس » أن يهب الإنسان قبساً منه ، فسرق من الآلهة شعلة العرفان ليهدى

بها البشر . وغضب الآلهة لفعلته ، فشدوه على جلود صخر فوق
الجبيل ، وأطلقوا عليه سباع الطير تنهش كبده كل يوم مرة ،
فكلما انتهشت له كبداً ، بدلته الآلهة كبداً أخرى . فأصابع كفك
هى الناس من حولك تفاوتت أقدارهم وتباينت أرزاقهم بمشيئة
ربك الذى يعطى من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب ؛ والمبرة
التي أتيت بها من مكتبتك رمز لضلالك بما قرأت ، كأنك
« فاوست » غاص فى العلم فأضله العلم ضللاً بعيداً ؛ وكنت
بمثابة من باع للشيطان طمأنينة نفسه لقاء لغو فارغ لا يسمن ولا
يغنى من جوع ؛ ثم حدثتك النفس الأمارة بالسوء أن تعدل فيما
خلق الله وتبدل ، فكان جزاؤك عذاب الدارين ، فعذابك فى
الدنيا دماء تسيل رمزا لما أنت ملاقيه من تعذيب فى النفس أوفى
الجسم أو فيهما معا ، وعذابك فى الآخرة نار تصلاها وبئس القرار
وسيطر الوحش ذو الأصابع ماثلاً أبداً أمام عينيك شاهداً عليك
بما أحدثته للعباد من فساد ، فى عالم ليس فى الإمكان أن يكون
أبدع مما كان ، وأما الجدار الذى سد عليك طريق الفرار ،
فعناه أن عذابك آت لا ريب فيه ، إلا أن تدعو ربك بالمغفرة
لعل ربك أن يستجيب لك الدعاء .

أنا فى جنتى الحارس للفضيلة أرهاها من كل عدوان ، لا أغض

الطرف عن مجانة الجان ، والعالم حول جنتى يغوص إلى أذنيه
 فى خلاعة وإفك ورذيلة ومجون ؛ دعهم يطيروا فى الهواء ويغوصوا
 تحت الماء ، فلا غناء فى علم ولا خير فى حياة بغير فضيلة ، دعهم
 يحلقوا فوق رؤوسنا طيراً أبائيل ترمينا بحجارة من سجيل ، فليس
 الموت فى رداء الفضيلة إلا الخلود ؛ إني والله لأشفق على هؤلاء
 المساكين ، جارت بهم السبيل فلا دنيا ولا دين ، أتدرى ما معنى
 الفضيلة عند هؤلاء المجانين ؟ معناها كل شيء إلا الفضيلة ! فالفساء
 عندهم يخالطن الرجال ، والنساء عندهم يراقصن الرجال ، ثم النساء
 عندهم يعملن مع الرجال ، وهن يقاتلن مع الرجال ! أرايت أخش
 من هذا الإفك إفكاً ! وأقبح من هذا المجون مجوناً ؟ حدثنى
 صديق أنه رأى هناك ذات يوم بعينه ، فى مكان واحد من
 دكان واحد ، قبة وقبة (وأراد بالقُبْع قبة الرجل تمييزاً للذكر
 من الأنثى) رأهما معروضين لا يسترهما عن أنظار المارة إلا لوح
 من الزجاج يشف للمارة عما وراءه ، وأعجب العجب أن علامة
 واحدة من علامات الحياء والحجل لم تبد على رجل منهم أو امرأة ،
 وبعد ، فهم يتحدثون عن الفضيلة كما أتحدث ، لكنها تعنى عندهم
 شيئاً عجيباً ؛ فإن خالطت هؤلاء القوم ، فيذبغى أن تكون منهم
 على حذر ، لأنهم يسمون الأشياء بغير أسمائها ، والردائل والفضائل

عندهم قد يلبس بعضها أثواب بعض ؛ سل حكيمهم : ما الفضيلة
 يا مولانا في بلادكم ؟ يجبك حكيمهم : إنها في اختلاط الحابل
 بالنابل ! أى والله ، لا يختلف عندهم رجل أمسك صيده بالحبال
 عن رجل أمسكه بالنبال ؛ ترى هؤلاء وأولئك خليطاً واحداً .
 « خليط » هذه هى الكلمة التى أريد ، فهيات أن تعرف فى
 أرضهم أين الرعاة وأين الغنم ، فكلهم — إن شئت — راع ،
 وإن شئت فكلهم غنم ؛ فى هذا الخليط يقترب الإنسان من
 الإنسان ، وقد يكون أحد الإنسانين ذال حية وشارب ، وقد يكون
 الآخر حليقاً ناعم الخدين أملس الصدغين ، وقد يكون فى اقترابهما
 أن ينحز الأول الثانى فيدميه ؛ لكنه خليط وفوضى ، ولن يصلح
 الناس فوضى لا سراة لهم ، ولا سراة إذا « عمالهم » سادوا .

فى هذا الخليط يتصايح الناس بما يحيش فى صدورهم ، لا يكتم
 أحد أحداً ، لأن أحداً ليس له سلطان على أحد ، كأنهم ذباب
 يطن ، لا تملك ذبابة منها أن تسكت عن الطنين ذبابة ؛ والمطبعة
 فاغرة فاها تلتقم من الأفلام حنظلها وشهداها ، ومن الأفواه
 حلوها ومرتها ، لتخرجه للناس صحفاً وكتباً ؛ وما ظنك بقوم
 يأذنون لرجل من أعلام كتبهم أن يقول فى كتاب مطبوع :
 إن الفتيان والفتيات ، فى المعاهد والجامعات ، يذبحن أن تشرف

الدولة على تنظيم غرائزهم ، فندبر لهم لقاء لا ينسل ؛ إن الدولة التي تدرأ عن أهلها السموم ، من واجبها أن تكم هذه الأفواه ، لكنهم قوم لا يعقلون .

في هذا الخليط لا يؤمن الناس بأن الدليل لا ينبغي له أن يسبق النهار ، ولا الشمس أن تدرك القمر ، وأن كلا في فلك يسبحون ؛ فهم يريدون لأجرام السماء كلها أن تسبح في فلك واحد ، ثم تختلف بعد ذلك أوضاعها وأشكالها ما شاءت أن تختلف ؛ وذلك الفلك الواحد عندهم هو صفة الإنسانية التي تجعل الإنسان شيئا غير الكلب والجمار ؛ فكن عندهم فقيرا ماشئت ، أو كن عندهم غنيا ماشئت ، لكنك إنسان . كن عندهم جاهلا ماشئت ، أو كن عندهم عالما ماشئت ، لكنك إنسان . كن عندهم ضعيفا ماشئت ، أو كن عندهم قويا ماشئت ، لكنك إنسان . كن عندهم زارعا أو صانعا ، فانت إنسان . كن عندهم خادما أو مخدوما وأنت في كلتا الحالين إنسان ؛ كأنهم جماعة من النمل لا تختلف فيها نملة عن نملة ! ... وأقرن فوضاهم هذه بالنظام في جنتي ، فأحمد الله على سلامتي ؛ أرادت زوجتي في جنتي أن تستخدم خادمة ، فسألتها :

— اسمك ماذا ؟

— بثينة يا سيدتى .

لكن زوجتى كانت بثينة كذلك ، فأبى عليها حب النظام
إلا أن تفرق بين الأسماء حتى لا يختلط خادم بمخدوم . وقالت فى
نبرة كلها صرامة ، ونظرة تشع منها الحرارة :

— ستكونين منذ اليوم زينب ، أتفهمين ؟

— حاضر ، سيدتى .

وبثينة بالطبع لم تفهم لماذا تكون منذ اليوم زينب ، لأنها
جاهلة صغيرة ، لم تفهم بعد ما الفضيلة وما الرذيلة
كلا ! لا أريد لهذا الغرب اللعين أن ينفذ إلى جنتى ، ولا
لمدنية الغرب أن تفسد مدنيتى ؛ وإنه لتغنيى عن سيارته حمارتى ،
وتكفينى دون طيارته بقلتى ، مادمت عن رذيلته فى حصن
من فضيلتى .

لكن لكل جنة إبليسها ، وإبليس جنتى وسواس خناس ،
ما ينفك يوسوس فى صدرى هاتفا : يا ويح نفسك ، لقد ضللت
ضلالين ، ضلالا بغفلتها ، وضلالا بتضليل قادتها .

في سوق البغال

قد كنت أعلم حقاً وصدقاً وبقيناً أن الليالي من الزمان
حبالى يلدن كل عجيبة ، لكننى لم أكن أعلم أن عجائب الزمان
قد تهزأ بالخيال ، ما شطح منه وما جمع ، حتى سمعت أن بغلاً
يحتج ويحاج كما يفعل عباد الله من بنى الإنسان .

فلقد حدثني صديق انجليزى ، كان ضابطاً في البحرية إبان
الحرب ، عن زميل له طوحت به خطوط البحر إلى جزيرة نائية
في عرض المحيط الهادى ، لم يزد سكانها فيما رأى عن بضعة مئات
اختلفت طبائعهم عن طبائعه ، ولسانهم عن لسانه ، لكنه كان في
خبرته بالحياة فسيح الأفق بحيث لم يدهش لاختلاف الشعوب في
طرائق العيش وأساليب التفكير والتعبير ، فالناس في رأيه ناس إن
ايضت جلودهم أو اقتتمت ، والناس ناس إن دارت أسنتهم في
الأشداق من اليسار إلى اليمين أو دارت من اليمين إلى اليسار ؛
لكن الذى أدهشه حقاً من أهل الجزيرة سذاجة بلغت بهم في
سرعة التصديق حدّاً لم يألفه فيما شهد من شعوب الأرض طرّاً ،
فهم يتناقلون رواية خلفاً عن سلف يؤمنون بصدقها لإيمانهم

بصدق روايتها ، مع أنها تنافى أوضاع الطبيعة كلها ، أو قل إنها تنافى ما ألف ذلك الزميل من هذه الأوضاع .

فقد روى له هنالك راوٍ أنه منذ مائة عام عرضت في ساحة السوق من الجزيرة جماعة من البغال للبيع والشراء جيء بها من أرض في شمالى إفريقيا لعلها بقعة من صحرائها لم يعرف أهل الجزيرة كيف يسمونها ؛ فأخذ الأمر يجرى مجراه المألوف عند القوم هناك كلما تم بينهم بيع أو شراء ؛ عرضت البغال وجاء الشارون ، فلم يكن بد من أن تنزع عن ظهورها الشرج ، ومن أفواهاها اللُجُم ، لتبدو عارية من كل زينة ؛ وأخذ الخبراء يحسون عضلاتها هنا ، ويختبرون مفاصلها هناك ، ويفتحون أفواهاها لينظروا إلى أعمارها في أسنانها ، ثم يركبونها ويدورون بها في ساحة السوق دورة أو دورتين ، ليروا أهى في جريها من العاديات أم الزاحفات ، خفاف الحركة هى أم ثقالها ، ويختبرون قدرتها على الحمل والجربشى الوسائل ، ليثق الشارون أنهم لن ينفقوا مالهـم عبثا إن أنفقوه ثمنا لهذه البغال .

لكن البغال فيما يظهر لم تعجبها هذه الطريقة في التقويم والتسويم ، لأنها تختلف عما ألفته في بلادها ؛ وهنا كانت المعجزة التى أدهشت صديقى وأدهشتنى وستدهش كل قارى وسامع ،

وهي أن ثارت البغال على سيدها وشقت عصا الطاعة على نحو
يشبه جداً ما يصنعه البشر إذا غضبت منهم طائفة لأمر أو أعلنت
عصيانها ، فلم تكن ثورة البغال جموحاً أو شموساً ، كلا ولا رفساً
وركلاً ، بل كانت احتجاجاً يقوم على علل وأسباب ، أشبهوا فيه
الآدميين لولا خلل في المنطق قل أن يزل فيه الآدميون ؛ أقول
لولا هذا الخلل في طريقة التفكير خللتها في ثورتها جماعة من البشر
سحرها ساحر ممن جاءتنا أنباؤهم في كتب الأقدمين ، فاستحالت
بغالا وما هي بالبغال ، أو تقمصت أرواحها أجساد البغال فبقي لها
من صفاتها الأولى شيء وزال عنها شيء .

أوشكت عملية الجنس والفحص أن تنتهي بتاجر البغال أن
يضع في أسفل سلم التقدير بغلا هزيلاً ضئيلاً رخو العود تلين
عضلاته لكل غامز ، فإن جرى تعثر ، وإن حُمِّل على ظهره
هوى ؛ لكن سرعان ما أشار هذا البغل الهزيل إلى سائر البغال
فانتبذت ركناً من مساحة السوق ، تتبادل الرأي والشورى ، فإن
لم تدهش لبغال تجادل وتقاول ، فادهش لأن تكون الزعامة لبغل
لم يكن أضخمها حجماً ولا أروعها شكلاً أو أسرعها حركة ؛
وأغلب الظن أن قد كانت له صفات رآها البغال ولم تدركها
أعين البشر !

قال البغل الزعيم لزملائه : ليس رأى عندى أن نترك القوم
يتحكمون في أقدارنا كما شاءت لهم أهواؤهم ، وإنهم لعلى ضلال ،
قد أراد الله لنا أن نكون بغالا ، والله حكمته فيما أراد ، ثم شاء
لنا أن نكون مراكبا للإنسان وأداة لحمل أثقاله ، ولسنا على هذا
القضاء المحتوم بشائرين ، فالدينا تبادل وتعاون ، نحن نحمله
وأثقاله ، وهويعد لنا المأوى وينبت الغذاء ، لكن الذى لا ينبغي
أن نلين له هو هذا الظلم والحيف والإجحاف ؛ فبما هكذا يكون
تقويم البغال ، ولو تركناهم فى ذلك وشأنهم اضطربت أوضاعنا ،
فعلّا أسفلنا وسفل أعلانا ، وقد خلقنا الله درجات بعضها فوق
بعض ، ومن الجحود بل من الكفر بنعمة الله أن نسوى بين
هذه المنازل المختلفة ، أو نغير فيها ونبدل ؛ فهل أنوب عنكم
لدى صاحب الأمر فأحتج لكم ، فإما أقام للعدل ميزانه ، وإما
نورة منا وعصيان ؟

فاجتمع رأى البغال على أن يبايعوا ذلك البغل الزعيم .
تقدم كبير البغال وفى أثره الزملاء ، والناس إزاء ذلك كله
مفغورة أفواههم من عجب ، مفتوحة أعينهم من رعب وخوف ؛
فهم يؤمنون بالمعجزات الخوارق التى لا تجرى على سنن الطبيعة ،

على شريطة أن تكون تلك المعجزات رواية تروى ، لا حدثاً يقع منهم على مرأى ومسمع .

قال البغل الزعيم لصاحب الأمر : لك أن تصنع بنا ما شئت في حدود العدل ، وليس عدلاً أن يكون هذا أساس التقويم ، لقد نزعتم عنا اللجُم والسروج ، فماذا أبقيتُم لنا مما تتم به المفاضلة بين الجيد والردىء ؟ فما بغلٌ بغير سرجه ولجامه ؟ وفيه هذا الجس في عضلاتنا ، وهذا الإرهاق كله في فخص أجسادنا ؟ إن ذلك بدع لم نعتده في بلادنا .

ارتعش صاحب الأمر من فرَق ، وأجاب وقلبه في حلقه فزعاً : لست أرى في ذلك بدعاً فتلك سبيلنا في التقدير ، الشيء عندنا قيمته فيما يصنعه ، فالطبيب طيب بمقدار ما يطب للمرضى ، لا بسماعته التي يلفها حول عنقه ، والحدّاء حدّاء بما يجيد من صناعة الأحذية لا بالفظاء الجلدى على ركبتيه ، والكلب السلوقى ممتاز لما يصنع في حَلَبَةِ الصيد لا بطوقه البراق ، والسيف بتار محده لا بغمده ، فأى عجب في أن يكون البغل بغلاً بقوة وسرعته لا بسرجه ولجامه ؟

فأجاب كبير البغال : إنكم في هذا البلد تنخدعون بحقائق الأشياء ، وإنكم في هذا العلى ضلال مبين ، الشمس في حقيقتها

كتلة ضخمة مهلهلة من غاز مشتعل ، لكنها عند من يعقل قرص صغير مستدير ، لأنها تبدو لعينه قرصاً صغيراً مستديراً ، والقمر في حقيقته جسم معتم ، لكنه عند من يفهم سراج منير ، لأنه يبدو لعينه سراجاً منيراً . الطبيعة كلها بإنسانها وحيوانها ظواهر ومظاهر ، فلماذا تشذ عندكم البغال في تسويمها

فسأل التاجر : كيف إذا يسوّم البغال في بلادكم ؟

فقال البغل الزعيم : في بلادنا لا الزبد يذهب جفاءً ولا ما ينفع الناس يمكث في الأرض ، فليست نخدعنا الحقائق عن إدراك الظواهر . ولا يزيغ اللباب أبصارنا عن رؤية القشور ، فلنا في تسويم البغال وسائل شتى ، أكثرها شيوعاً أن تتناسب قيمة البغل مع قيمة راكبه صعوداً وهبوطاً ، فليس البغل يمتطيه الغنى في حريته ونضاره ، كالبغل يركبه الفقير في هلاله وأسماه ، وليس البغل يخنال على صهوته صاحب الحول والطول ، كالبغل يعلوه من ليست له سطوة وسلطان ؛ وقد تعلو قيمة البغل لأن أباه كان مشدوداً إلى عربة أمير أو وزير ، فتكتسب العربة هيبة من هيبة الراكب ، ويستمد البغل الوالد قيمة من قيمة العربة ، ثم يأتي البغل الولد فيزداد قدراً لازدياد قدر أبيه .

ليس هذا المعيار في المفاضلة والتقويم بهين ولا ميسور ، فقيه

من الدقة ما يخفى على غير الخبير ؛ إذ قد تغمض الفوارق بين
الراكبين أحيانا ، حتى ليعتذر على مثلك ومثلى أن يعلم فى يقين
أى الراكبين أرجح مثقالا ، ليكون بغله أعلى منزلة ومقدارا .
وكم من بغل أخطأ فى ذلك الحساب فهوى نجمه وكان يحسبه إلى
صعود ؛ لهذا نشأت بيننا طائفة من الخبراء مهمتها أن توازن بين
أقدار الراكبين ليعتدل بذلك ميزان التسعير بين البغال ، وإنك
لتدهش أن ترى حساب الخبراء قد يدق ويدق حتى يصبح
معادلة جبرية يحتاج فك رموزها إلى مران طويل ، خذ
لذلك مثالا :

أى الراكبين أغز سلطانا ، راكب سطوته فى قومه وسط
بين الضعف والقوة لكنها سطوة تدوم وتتصل ، أم راكب جبار
مكتسح غير أن قوته تظهر آنا وتختفى آنا ؛ فلقد رأيت فى ذلك
بغلين اقتتلا أيهما أقوى سندا وأغز ظهيرا ، أحدهما يقع راكبه
فى الناس بين بين ولكن قوته موصولة الحلقات لاتزول ، والثانى
راكبه يسطع ضوؤه ويخبو كمصباح النار فى الليلة الظلماء ، فإن
سطع خطف بريقه الأبصار ، ولم يكن هذا الراكب فى مجده حين
اعترك البغلان ؛ قال البغل الأول لزميله : أنا أخف منك راكبا
وأقوى مؤيدا ، لأن نفوذا وسطا خير من لانفوذا . فأجاب البغل

الثانى قائلا : إن الفردوس المفقود يرجي له يوما أن يعود ، ولا
يخذعناك الركود القائم ، فكم من هوض يأتي بعد ركود ؛
وللجبروت الفعال لما يريد — يظهر ويختفي — خير ألف مرة
من نفوذ يدوم هينا لينا . ومضى البغلان فى الجدل ، لم يدريا
كيف ينحسم الخلاف بينهما بغير خير ، وقصدا إلى الخبير فافتاها
بأن الحكم فى مثل ذلك الأمر وسيلته العد والحساب ، فعلينا أن
نعد من زادت قيمته فى الأسواق من بغال الصنف الأول ، ومن
زادت قيمته من بغال الصنف الثانى ، والرجحان لما تكون فى
جانبه الكثرة العددية ، فإن دلت الأرقام على أن البغال التى
ارتفع سعرها بسند من الظهراء الأوساط الدائمين أكثر عدداً من
التي ارتفع سعرها بسند من الظهراء الأقوياء المتقطعين ، كان
الحكم للأول ، وإن كان العكس فالحكم للثانى ؛ وإن لم تختص
الذاكرة كان الرجحان فى هذه المشكلة للبغل الثانى ؛ إذ أثبت
الإحصاء أن التيار القوى المتقطع يدفع الطاقى دفعات أقوى وأبعد
من التيار اللين وإن اتصل ، ودع عنك بغلا ليس لظهره ركب ،
فذلك بين القوم سخرية الساخرين .

ووسيلة أخرى لتسعير البغال عندنا : أن ينظر إلى نوع
المذاود ومكانها ، بغض النظر عما تحويه تلك المذاود من غذاء ،

أحنطة هو أم شعير ، فبغل غلا سعراً وعلا قدرأ لأنه أكل من
مذود في بلد بعيد ، فالمذود في هذه الحالة يكتسب قيمة من قيمة
المكان الذي وضع فيه ، ثم يكتسب البغل قيمة من قيمة مذوده
الذي ربط إليه حيناً . وإني لأذكر في ذلك أيضاً أن بغلين
اختلفا ذات يوم في قدريهما أيهما أفوم ؟ أما أحدهما فاغتمذى من
مذود في بلاده ؛ وأما الثانى فأرسلوه إلى بلد بعيد ليحلفوه ؛ ولو
عاد ملىء الجوف لما كان بينهما خلاف ، لكنه فيما روى عنه
وما ثبت بالفحص الدقيق ، لم يأكل هنالك شيئاً إما لخلاء مذوده
وإما لمرض في جوفه ، وارتد إلينا خالى الأمعاء خاوى الأحشاء .
ومهما يكن من أمر فقد اختلف البغلان واستفسرا خبيراً ، لكن
الأمر هذه المرة لم يحتج إلى عدّ وتقدير ، فوضح لكل ذى بصر
أنه بالمذود ، لا بالغذاء يكون التسويم والتسعير ، فإن أردت أن
تسوم بغلا فلا تسل ماذا أكل بل قل أين أكل ، فإذا علمت
أنه أكل من مذود في واق الواق بينك وبينه المحيطات والبحار
والفيافي والقفار ، فذاك بغل متين مكين . أما إن علمت أنه أكل
في حقل أبيه ، لم يشرق ولم يغرب عن أرضه وذويه ، فأهون به
بغلا عند بائعه وشاريه ، ثمّنه بخس دراهم معدودة .
وطريقة ثالثة في تقويم البغال : قدرتها على الرفس ، فأقواها

رفسا أرقاها مقاما لأنه أصلحها في تنازع البقاء ، وأحسبك لو
 سئلت في هذا لأجبت بهرائك الذي فُهِتَ به منذ حين ، زاعما
 أن البغال لم تستخدم لترفس إنما استخدمت لتحمل الأثقال ،
 فأعْرَضُها ظهراً وأقواها عضلاً هو أجدرها بالصعود في أسواق
 الشراء ؛ لكن ذلك تفكير ملتوٍ لا نسيغُه في بلادنا ، فقد خلق
 الله البغال بالظهور والحوافر ، وليس سوى التجربة وحدها أن
 يقول هل يكون البغل بغلاً بظهره أو بحوافره ، فإن كانت
 الحوافر أنجح وسيلة وأقصر طريقاً ، كانت ميزانا عادلاً للمفاضلة
 بين البغال .

على أننا نستخدم كذلك وسيلتكم في جس العضلات
 واختبار المفاصل ، لكننا نقصرها على الطبقة الدنيا من البغال ،
 فالدنيّ منا لا السنيّ هو الذي يمتحن امتحاناً قاسياً قبل أن
 يُدفع من ثمنه قرش واحد ؛ فالفرق بيننا وبينكم هو أننا نفرق
 بين البغال في طريقة التسمير وأتم لا نفرقون .

قال الرجل : إن كان هذا تسويمكم للبغال ، فكيف تسويمكم
 للرجال ؟

فقال البغل : ليس في بلادنا كبير فرق بين الرجال والبغال .

بيضة الفيل

قال الشيخ : الفيلة تلد ولا تبيض — والمشكلة المراد حلها هي هذه : لو كانت الفيلة لتبيض ، فماذا يكون لون بيضتها ؟ في الجواب عن هذا السؤال اختلف العلماء ؛ يقول عمارة بن الحارث ابن عمارة تكون بيضاء ، واستدل على صحة قوله بدليل من القياس ودليل من اللغة ؛ أما دليل القياس فهو أن كافة مخلوقات الله التي تبيض بيضها أبيض ، وليس في طبيعة الفيل ما يدل على أنه لو باض أخذت بيضته لونا آخر غير البياض ؛ فإذا اختلف الفيل عن غيره من الحيوان فذلك في حجمه وقوته ونابه ، وهذه صفات كلها لا تستلزم في البيضة لونا غير البياض ، فقد يكون الحيوان صغيراً كالذبابة أو كبيراً كالنعامة ، قويا كالعقاب أو ضعيفا كالحمامة ، بناب كالتمساح أو بغيره كالدجاجة ، والبيضة هي هي في لونها بيضاء لا تتغير ؛ ومما يزيد هذه الحجة وزنا ورجحانا هو أن الخلائق تجري على اطراد وتشابه ، فالكواكب متشابهة والبحار متشابهة والطير متشابهة والحيوان متشابه ؛ فلو قيل مثلا إن حيوانا جديداً سيولد بعد ألف عام ، جاز لنا أن نحكم في ترجيح يقرب من اليقين بأنه سيكون ذا أذنين وأنف واحد وعينين ؛ وعلى هذا القياس

نفسه نحكم بالبياض على بيضة الفيل لوباض . وأما دليل اللغة فهو أن البيضة مشتقة من البياض ، وإذا فالبياض أصل والبيضة فرع منه ، ولا يعقل أن يتفرع عن البياض حمرة أو زرقة ، لأن الفرع شبيه دائماً بأصله ، ولذلك قيل هذا الشبل من ذاك الأسد . ثم استطرد عمارة فتساءل عن حجم بيضة الفيل ، وأجاب بأنها تكون قدر بيضة النعامة عشرين مرة ، لا لأن الفيل يكبر النعامة حجماً بهذا القدر كله ، بل لأنه في قوته يوازي عشرين نعامة ، والأساس في حجم البيضة هو قوة الحيوان البائض لا حجمه فتصغر بيضة الحيوان أو تكبر بمقدار ما هو قوى أو ضعيف ، لا بمقدار ما هو صغير أو كبير ، على خلاف الرأي الشائع بين الناس ، وقد أيد عمارة قوله هذا بأمثلة ساقها تدل على أن الحيوان ربما كان كبيراً وباض بيضاً صغيراً ، أو كان صغيراً وباض بيضاً كبيراً .

ثم تساءل عمارة أيضاً : هل كانت طبيعة الفيل لتتغير لو باض ، فيكون ذا جناحين ليتخذ طبيعة الطير ؟ وأجاب بأنه ليس في نواميس الكون ما يستلزم هذا الانقلاب في طبيعته ، فالسمك يخرج من البيض وليس له أجنحة ، بل له زعانف تساعد على السبح ولا تساعد على الطيران ؛ وبيض الفراش وبيض الذباب

وما إلى ذلك يخرج منه الدود ولا تخرج منه ذوات الجناح . وإذا
 فقد يخرج من بيضة الفيل فيل ذو أربع قوائم وليس له جناح .
 وأخيرا تساءل عمارة : ما حكم الشرع في بيضة الفيل ، أيحل
 أكلها للمسلمين أم يحرم عليهم ؟ وهنا كذلك أجاب بدقته
 المعهودة أن بيضة الفيل حلال أكلها بشرط ، حرام بشرط :
 فهي حلال إذا كانت لا تكسب الإنسان الآكل صفة الافتراس ،
 وهي حرام إذا خيف أن تكسبه هذه الصفة . وإنما يكون الآكل
 بمنجى من عدوى الافتراس لو كان الفيل البائض هو الجيل العاشر
 من سلسلة أجيال استأنسها الإنسان . بمثل هذه الدقة العقلية
 والبراعة الذهنية أثار عمارة بن الحارث هذه المسائل عن بيضة
 الفيل وأجاب عنها ، ولا عجب فهو الفقيه العالم الذى سارت
 بفتاواه الركبان فيما تعذر حله على غيره من العلماء .

وتصدى معسرة بن المنذر لتفنيد ما قاله عمارة بن الحارث في
 بيضة الفيل من حيث لونها ، فقال عن دليل القياس الذى ساقه
 عمارة بأن كافة الحيوان الذى يبيض ببيضه أبيض ، ولذلك فبيضة
 الفيل لابد أن تكون بيضاء اطرادا مع القاعدة ، إنه دليل لا يقوم
 على سند من الواقع ، فليس صحيحا أن كافة الحيوان الذى يبيض
 ببيضه أبيض . فبيض البط فيه خضرة خفيفة ، وبيض الدجاج

في بعضه حمرة خفيفة ، ومن الطير ما بيضه أرقط ، ومنه ما بيضه أزرق . وأما دليل اللغة الذي يبنى على أن البيضة مشتقة من البياض ولذلك وجب أن تكون بيضاء ، فهو استنتاج معكوس ومغلوط في آن معاً : معكوس لأننا حتى لو فرضنا أن البيضة مشتقة من البياض ، فليس هذا دليلاً على أن البيضة بيضاء لأنها بيضة ، بل هو دليل على أنها بيضة لأنها بيضاء . ولتوضيح المعنى المراد ضرب معسرة مثال الدقيق والخبز ، فالدقيق أصل والخبز فرع فإن جاز لنا أن نقول إنه خبز لأنه من دقيق ، فلا يجوز أن نقول إنه من دقيق لأنه خبز . والدليل مغلوط ، لأننا حتى إن ربنا مراحل الاستنتاج ترتيباً صحيحاً ، وقلنا إن البيضة بيضة لأنها بيضاء كانت النتيجة خطأ ، لأنه لا يكفي أن يكون الشيء أبيض لنحكم عليه بأنه بيضة ، وإلا لجاز لنا أن نقول إن هذا الجدار بيضة لأنه أبيض ، وهذا الدقيق بيضة لأنه أبيض ، وهلم جرا .

وبعد أن فند معسرة أقوال عمارة ، بسط رأيه في لون بيضة الفيل ، فقال : إن الفيل حيوان فيه شذوذ عن مستوى الحيوان ، والشذوذ لا بد أن ينتج شذوذاً ، وإلا لما تكافأت المقدمات والنتائج . والشذوذ في البيض أن يكون أسود ، ولذلك فإن كان

الفيل لبييض وجب أن تكون بيضته سوداء ، إذ لو باض بيضة
بيضاء ، كنا بمثابة من يقول إن الحيوان الشاذ تنفرع عنه نتيجة
لا شذوذ فيها ، وهو قول فيه تناقض بين الصدر والعجز .

وكان بين تلاميذ ابن الحارث تلميذ نجيب ، فتصدى للرد
على نقد معسرة ، فقال : إن معسرة وهو شيخ المناطقة في
زمانه ، قد زل زلة ما كان ينبغي أن يقع في مثلها رجل مثله ،
فبينما هو ينكر أن يكون للبيض لون خاص ، ويزعم أن من
البيض ما هو أزرق أو أرقط ، تراه في الوقت نفسه يقول إنه
مادام الفيل حيوانا شاذا وجب أن يكون بيضه شاذا في لونه
كذلك ، والشذوذ في البيض أن يكون أسود ؛ فكيف يكون
الشذوذ سواداً إذا لم تكن القاعدة بياضاً ؟ هذا من جهة ،
ومن جهة أخرى نحن نسائل هذا العالم المنطقي : أصحیح أن
الشاذ لا ينتج إلا شاذاً ؟ أيظن معسرة أنه مادامت الحية لا تلد
إلا حية ، فالأعرج لا يلد إلا الأعرج ، والأعمى لا يلد إلا
الأعمى ؟ فإن كان الأعرج ينسل من يمشى على قدميه ، كما
ينسل الأعمى من يبصر بعينه ، فلماذا لا يبيض الحيوان الشاذ
بيضة تجرى مع الإلف والعادة ؟

قال الشيخ : هكذا جرى النقاش بين العلماء

وزلزلت الأرض زلزالها ، وقال الشيخ : ما لها ؟ قليل :
يا مولانا قبلة ذرية ، في لحظة تقضى على الأصل والذرية .
قليل : فعجب الشيخ أن كان في الدنيا علم غير علمه .

قصاصات الزجاج

ياحدى الكنائس فى انجلترا نافذة أبدعتها يد صناع فجاءت
آية من آيات الفن الروائع تحفة للزائرين ؛ اتسقت ألوانها ،
وأتقنت تصاويرها ، وبلغت فى كل شىء حد الكمال ؛ ويقص
عليك الدليل أنه لما بنيت الكنيسة جىء لزخرفتها بفنان طبقت
شهرته الخافقين فى الفن الجميل ، واستصحب الأستاذ صبيا كان
يلازمه ليتلقى عنه أصول الفن ، وأخذ الأستاذ الفنان فى زخرفة
النوافذ ، ورصت أمامه ألواح الزجاج ألوانها شتى ، يجذب من هذا
مرة ومن ذلك مرة ، ويرشد الغلام إلى قواعد الفن فى صناعته
كلما وضع فى النافذة قطعة من زجاج ؛ فهنا مربع أزرق وإلى
جانبه حلقة حمراء ، وصورة القديس هنا ، وهنا صورة العذراء .
وكان الأستاذ خلال ذلك يقذف بقصاصات الزجاج غير مبال
بها ، فينثرها يمينا ويسارا ، والغلام من ورائه يجمع هذه القصاصات
ليلقى بها حيث تؤمن العواقب .

لكن الغلام فنان موهوب ، فلم يلق بقصاصات الزجاج
حيث تلقى سائر الفضلات ، بل أخذ يلهو بها فى سويغات فراغه
حتى كانت له فى النهاية نافذة رائعة بارعة هى التى يقف عندها

الزائرون اليوم ليقص عليهم الدليل قصتها ، ويحكى أنه لما فرغ الصبي من نافذته أطلع عليها أستاذه :

— ما هذا الذى أرى ؟

— نافذة صنعتها

— وأنى لك الزجاج ؟

— قصاصات جمعتها

ورأى الأستاذ فى نافذة الغلام فنا لا يقاس إليه فنه ، وكبر عليه الأمر فانتحر .

ذكرت قصة هذا الغلام الفنان ونافذته ، إذ كنت جالسا أمام مدفأتى ليلة أمس ، وحيدا فى غرفتى ، والدنيا من حولى صامتة لا تسمع فيها صوتا ولا حركة ؛ فأتخذت منها نقطة ابتداء وتركت خواطرى تترى خاطراً فى إثر خاطر

فخطر على ذهنى أول ما خطر مؤرخ فنان أقرب ما يكون شبيهاً فى كتابته للتاريخ بذلك الغلام فى صناعته للنافذة ، فقد كانت نافذته التى صنعها قصصاً تاريخياً هو أحلى ما جرت به يراعة على قرطاس ، وكانت قصاصاته التى صنع منها نافذته نتفاً من الأخبار والحوادث تساقطت من بين أصابع الذين احترفوا كتابة التاريخ ، إذ قصر هؤلاء أنفسهم على الحوادث الضخمة والرجال الأعلام

ونفضوا عن أسنة أعلامهم عامة الناس يمينا وشمالا ؛ فمن ذا تعنيه
 قصة جمال اعترك مرة مع جاره الحال وساد بينهما الود مرة ، بقدر
 ما تعنيه الروس المتوجة تختصم آنا وتتهادن آنا ؟ من ذا تعنيه
 قصة امرأة عجوز أحبت قطنها أو كلبها ، بقدر ما تعنيه الأميرة
 ملأت شغاف قلبها بحب الأمير ؟ لكن صاحبنا المؤرخ الفنان لم
 يرضه أن يلتقي بهذه القصصات في تراب الرفوف ، فنقاها وصفها
 وسواها قصصا هي هذه التي تقرأها فتمتلك وتفنتك ؛ لم يهره
 الملوك في قصورهم ولا القادة في حومات القتال إلا بمقدار ما يكون
 هؤلاء الملوك والقادة بشرا من البشر ؛ وكان من رأيه أن صولجان
 الملك قد لا يثير الخيال بمقدار ما يثيره محراث الفلاح ، ولذلك
 ترى مادته البشرية في قصصه هي هذا الزارع الصغير وهذا
 الصانع وهذا البائع وهذا الجندي وهذه الفتاة الريفية الساذجة ؛
 فمن هؤلاء تتكون لحة الحياة وسداها . وإنه لمن فضل الله على
 عباده أن جعل بينهم قدراً مشتركاً لا يملكون أن يخضعوه لهذا
 التفاوت الذي فرضوه على أنفسهم فرضاً في شتى نواحي العيش ،
 فالفتاة الريفية تحب فتاها كما تحب الأميرة أميرها ، وتحزن زوجة
 الأجير على ولدها إذا أصابه الردى كما تحزن على ولدها زوجة
 الوزير ؛ فالحمد لله الذي جعل الناس يضحكون ويبكون على

غمرار واحد ، ويجوعون ويشبعون ويرضون ويسخطون على
نسق واحد ، ويفتقرون إلى الله ويعبدونه بأسلوب واحد ؛
وأدرك مؤرخنا الفنان هذا القدر المشترك وعرف له وزنه وقيمه ،
فجمع قصاصاته التي ألقى بها بين المهملات ، ومن هذه القصاصات
صنع آياته الخالدات .

ومضى هذا الخاطر وجاء في إثره خاطر .

طافت بذهني عشرون عاما مضت على صديق لم يكد يخلو
فيها إلى حياته أسبوعا واحداً ، وأوشك ألا يمضي يوم خلاها دون
قراءة وكتابة يثقف بهما نفسه ومن حوله من الناس ، فكان
إنتاجه بمثابة النافذة صنعها من قصاصات ، هي سويغات الفراغ
التي أبقتهالة الدولة بعد أن استأجرت معظم وقته لقاء بضعة قروش
رأها أولو الأمر ثمناً عادلاً له في سوق البيع والشراء ، وكأنما هاض
صديقي هذا ذلك الجهد الثقيل فأقعده بينما كانت القافلة في مسير ،
أو رأى نفسه يمشي في طريق وقافلة الناس في طريق آخر ؛ هي
ماضية من جنوب الأرض إلى شمالها وهو سائر من الشمال إلى
الجنوب ، رأى نفسه هابطاً وأنداده في صعود ، وأوفى هؤلاء
الأنداد صداقة من كان يلقي نظرة إشفاق وهو عابر مخلقاً وراءه
هذا الزميل المهيض ، وذات صباح مشمس ضاح ، حمل صاحبنا

نافذته وقصد بها إلى أحد السادة رعاة الفن الجميل وهو كالليث
في مريضه :

ما هذا الذي جئتني به ؟

— نافذة صنعتها

— وأنى لك الزجاج ؟

— قصاصات جمعتها

وضحك السيد الذي كان من رعاة الفن الجميل وقال : يؤسفني
يا بني أن أقول إننا في هذه الدار قد تواضعنا على ألا ننعت بالفن
نافذة قوامها القصاصات ، فهأنت ذا ترى النافذات التي وجدت
طريقها إلى جدراننا ألواحاً كاملة .

وحمل المسكين نافذته وعاد إلى مأواه ، ولوراه عندئذ رسام
فنان لا تنهزها فرصة سانحة أن يخرج للناس آية يكتب على
إطارها « خيمة الأمل » ولأصبح ذلك الصديق بعدئذ عبء
لكل من تحدته في أرض الكنانة نفسه أن يصنع نافذة من
قصاصات الزجاج .

وكادت تشيع ذكرى صديقي اليأس في نفسي ، لولا أن حانت
منى التفاتة إلى صورة معلقة على جدار غرفتي ، صورة « الأمل » :
كوكب مظلم خلا من أهليه إلا فتاة شد على عينيها برباط فلا ترى ،

وعلى إحدى أذنيها فلا تسمع إلا ضئيلاً ، وفي يدها قيثارة تقطعت
أوتارها إلا وترأ ، ومع ذلك كله أحنّت الفتاة رأسها في ذلك العالم
الموحش المظلم الصامت ، لعلها تسمع نغماً واحداً من ذلك
الوتر الواحد !

إن حدث لك يا صديقي أن تقرأ هذه السطور ، فنصحى
إليك ألا تؤنسك أحكام السادة الذين هم في أرض الوطن العزيز
رعاة الفن الجميل ؛ إنهم لن يزدهقوا أرواحهم يأساً حين يرون
أنفسهم صفار الفكر بالقياس إلى فكرك ، ضئال المهمة بالقياس
إلى همتك ، كما فعل أستاذ الفن مع صبيه الموهوب ، بل هم
سيسحقونك أنت سحقاً وهم سينحرونك أنت نحراً ، ليبذو قليلهم
كثيراً وضلهم غزيراً .

ومضى هذا الخاطر وجاء في إثره خاطر .

فتاة في خدرها ، نؤوم الضحى ، تستيقظ لتزيّن ، ثم تمحو
زينتها لتنام ! وهى في سويعات صحوها لا تجاوز ظليل خدرها ، صونا
للشرف ، لأن الشرف من صفات الخفافيش ، هو وضوء الشمس
نقيضان لا يجتمعان ؛ فالقهرمانة الآن في الردهة ، والقهرمانة الآن
في الغرفة ، وساعة هى في البهو وساعة في الشرفة ، وهكذا أخذت
تتعاقب الأيام ، ليل يتلوها النهار ونهار يأتى بعده الليل ؛ شتاء يتلوها

صيف وصيف يأتي بعده الشتاء ؛ والوردة الأرجة ترسل عبقها في
أرض بلقع يباب انتظاراً لمن يكون لها قريناً ؛ والقرين المرتقب
دونه إليها الصعاب ؛ فهذه ساحرة تلاقيه في الطريق وتخدعه حتى
تخدعه ، وتغازله فتصرعه ؛ حتى إذا ما أفاق لنفسه وتبين فيها غش
الساحرات تركها ومضى ، ليصادفه بعدئذ شيخ هرم ملتحم ، سكن
كهفاً بعيداً عن العمران ، وراح بالإكسير يخرج من النحاس
الخبث ذهاباً إبريزاً ؛ فما إن رأى الشيخ فتاناً حتى أغراه بالملك
إلى جواره حيناً ينفخ له النار ، وله من محصول الذهب مقدار ،
ولبت الفتى ينفخ النار عاماً وعاماً وثالثاً بعده رابع وخامس ،
ورائحة الذهب تملأ أنفه وخياشيمه فلا يترك المنفاخ ، والفتاة هنالك
في ارتقابها له تستيقظ لتزيّن ثم تمحوز ينتها لتنام . . . تلك الفتاة
قصاصة بشرية قذفت بها الرحى بين المهملات .

ومضى هذا الخاطر وجاء في إثره خاطر ، بل سلسلة من
الخواطر جاءت في تتابع سريع ؛ فالفتاة التي تعطلت في دارها
عن غير ضعف إلا ضعفاً في إدراك ذويها ، دعت إلى الذهن ألوف
الآلوف من الناس الذين انتشروا في أرجاء البلاد مدائنهم والقري ،
لا يعملون أو يعملون وكأنهم لا يعملون ؛ فهم أقرب الناس شبيهاً
بمدينة ضاقت بأهلها سبل العيش ، فاتفق الجيران على أن يتبادلوا

الخدمات ، فكل يغسل لجاره ثيابه ، وكل تكتس لجارتها بيتها ؛
نم دهش أهل المدينة أن رأوا أنفسهم كادحين والبطون لم تزل
على حالها خاوية ! إن السادة إذ أعدوا لأنفسهم حياة ترضى فيهم
الغرائز والشهوات ، نثروا حولهم عن غير وعى هذه القصاصات .
وصاح صائح : كيف السبيل إلى الإصلاح ؟
الإصلاح سبيله أن تعرف لكل قصاصة قيمتها ، وأن تجد
كل قصاصة مكانها من نافذة المجتمع ، فمن لهذه القصاصات
البشرية بمن ينسقها أمة منتجة عاملة ؟ من لهذه القصاصات
البشرية بمثل ذلك الصبي الفنان ؟ .

الدقة الثالثة عشرة

إذا دقت ساعتك ثلاث عشر دقة ، كانت الدقة الثالثة عشرة خطأ في ذاتها أولاً ، وداعياً إلى الشك في صدق الدقات السوالمف ثانياً ، ثم كانت ثالثاً بمثابة النذير الذى يعان لك فى صوت جهير أن الآلة كلها فاسدة لا مندوحة لها عن إصلاح وتعغير .

وقد دقت ساعتى ذات ليلة ثلاث عشرة دقة ، إذ كنت بين يقظة ونعاس ، ولبثت الدقة الثالثة عشرة حيناً فى الهواء تجر وراءها ذنباً من رنين يرتعش مأجاً فيهز مسمعى بأصدااء خافنة أخذ يتداخل بعضها فى بعض حتى صارت فى الأذن طنيناً موصولاً ودارت فى نفسى معانيها مضطربة غامضة كما تدور فى النفس أوائل الأحلام عند من ينسحب من يقظة النهار شيئاً فشيئاً ليأخذ فى رقدة الليل ؛ حتى إذا ما أخذ منى الكرى بمعاقد الجفنين ، رأيتنى فى بهو فسيح كتب على بابه « بهو الفراعنة » ، رصت إزاء جدرانها ثلاثة عشر تابوتا نقشت على ظهورها رموز ورسوم مما تراه على توابيت الفراعنة الأجداد ؛ لكنها كانت تدق كأنها

الساعات ، كل منها يدق ثلاث عشر دقة ، حتى إذا ما فرغت
الواحدة من دقاتها بدأت الأخرى .

كان البهو فسيحاً معتما لا تتبين فيه حدود الأشياء واضحة إلا
إن دنوت منها ونظرت إليها عن كشب ، فرشت أرضه بمنشور من
الرمل يبعث صوتاً أجشً كلما داست على حصبائه قدم ؛ وكان
يضيء في وسطه قنديل ضئيل استقامت في ذبائله شعلة النار ،
لا تموج يمنة ولا يسرة ، لسكون الهواء ، أو قل لانعدامه ؛ فما
يسع القادم إلى « بهو الفراغة » إلا إحساس عميق بأنه إنما أقبل
من المكان على مقبرة كل ما فيها يوحى بركود الموت وجوده ؛
ولأول مرة أدركتُ في وضوح أن الضوء إذا خفت كان في
طبيعته أقرب إلى الظلام منه إلى الضياء ، لأنه يزيد من الأشباح
التي تتراءى لناظريك ولا يكاد يعينك على الإبصار ، فكأنما هو
ظلام منظور ، أو نار بغير نور .

وقفت ذاهلاً أنصت إلى الدقات التي كانت أدنى إلى
حشرة الموت منها إلى الرنين الصافي ، وقد امتلأت أرجاء
المكان بأصدائها حتى خيل إلى أن موجات الصوت تتراكم
بعضها فوق بعض ، وأنتى مغموس منها في بركة من صوت ؛
ولأول مرة كذلك أدركتُ في وضوح أن الصوت إذا انبعث من

وادی الموت ، كان في طبيعته أقرب إلى الصمت منه إلى الصيَّات ؛
فقد أحسست حولي بصمت عميق رغم هذه الأصداء التي تملأ
أرجاء المكان ، وخشيت أن أحرك قدما فيصيت الرمل تحت
قدمي ، ويعلم بصوته عن وجودي في مكان أريد به في أغلب
الظن أن يرمز للموت لا أن يكون مضطربا للحياة والأحياء ؛
لكني لما سكنت ساعة عن دقها وبدأت ساعة ، أحسست
بدافع يجذبني إلى الساعة الدقاقة ولم أملك الوقوف ، فخطوت
نحوها خطو الخائف الوجل ، جف في حلقة الريق وارتعدت منه
الفرائص ، وودّ لو استطاع أن يحقق رجاء أبي العلاء ، فسير في
الهواء رويداً حتى لا يحرك حصباء الأرض بقدميه .

ذوت من الساعة الدقاقة فإذا بوجه التابوت فيها قد تبدل
شيئاً عجيباً تكاد تخر لرؤيته صريعاً ؛ انقلب وجه التابوت في
ثلاثة أرباعه السفلى لوحاً من زجاج وفي ربه الأعلى مربعاً من
الخشب فيه ثقب مستدير ؛ وكان البندول إنساناً مخنوقاً أخذ جثمانه
يتأرجح خلف الغلاف الزجاجي يمنة ويسرة ، مشدود الذراعين
موثق القدمين ، وتدلى رأسه من الثقب في أعلى الإطار ؛ يغطيه
طربوش قديم بال مجمد السقف والجوانب ، طال « زره » وطال
حتى لف حول عنقه ثلاث عشرة حلقة ، وجحظت عيناه وانفتح

فه وتدلى لسانه وأخذ يهتز في اتجاه معاكس لحركة جسده ، فإن تأرجح الجسد يمينا مال لسانه نحو اليسار ، وإن تأرجح الجسد يساراً مال لسانه نحو اليمين ، أو خيل إلى أنه يفعل .

لم يفتنى بين هذه المفارغ كلها أن أعجب للقدر كيف كان في سخريته حكيما وفي حكمته ساخراً ؛ فقد مات الرجل مختنقاً بما اتخذته في حياته دليلاً على أنه حي بين الأحياء ! مات مختنقاً بالذى اصطنعه رمزاً لعزته ! أكان السم الزعاف إذاً يمكن له في خيوط هذا الإرث المجيد ؟ وقع في وهمه أن تراث أجداده باعته على الحياة والنشاط ، فإذا تراث الأجداد ينحدر به إلى مهوى الموت والهلاك ! مات المسكين مختنقاً في أغلال وأصفاد من نسج الآباء والأجداد ، ولو أخلص له النصيحة ناصح قبل أن يختنق لأشار عليه أن ينسلخ من جلده انسلاخاً ، لأن في جلده الضر والوباء ؛ لو أخلص له النصيحة ناصح قبل أن يختنق لأشار عليه أن يلقي عن نفسه هذا الموت الرابض ، وأن يحطم هذه الأغلال وهذه الأصفاد ليكون بين سائر الناس خفيفاً نشيطاً ؛ لكن علموه فتعلم أن أصفاده سلاسل من ذهب ، وهل يطرح الذهب النضار إلى أحق مجنون ؟ علموه فتعلم أن في الدنيا شرقاً وغرباً ، وأن للشرق هذا البريق الذي تلمع به تلك السلاسل الذهبية ؛

ولو أخلص له النصيحة ناصح قبل أن يَخْتَنقَ لأنهم أن ليس في الدنيا شرق وغرب ، لكن في الدنيا إنسانا يحيا ويتقدم فيقال له غرب ، ويتدهور ويموت فيقال له شرق ، وله بعد ذلك أن يختار بين الحياة والموت : لكن مات المسكين — وأأسفا — مغلول اليدين موثق القدمين ؛ علوه بسلسلة ذرعها خمسة آلاف عام تمتد إلى حيث كان أجداده عن الحياة في شغل يبنون الأهرام الشوامخ استعداداً للموت والفناء ، ومن يدري ؟ لعله مات بعد أن بذر في أبنائه بذور الرجاء .

هنا دقت الساعة دقتها الثالثة عشرة ، واتسعت من الرأس المتدلى ثغرة فمه ، فإذا هي باب والشفطان مصرعاها ، وانقلب اللسان حارساً شد على وسطه حزاماً أحمر ، وانحنى في احترام يدعوني للدخول .

دخلت لأجدني واقفاً أمام بناء فخم ضخم رفيع العماد ، ودخلت الدار فكان الذي دخلته حجرة دراسية تخلق في صحنها ثلاثة عشر صبياً وقف في وسطهم معلمهم ، على نحو ما تحلقت التواييت في البهو واستقامت في وسطها شعلة القنديل ، ولسبب لا أدريه حدثت بصرى في المعلم حيناً لا أكاد أتحوّل عنه ، لم تعجبني هيئته ، ولم أشهد على وجهه علامات الصقل والتهذيب

التي يتركها العلم عادة على وجوه أصحابه ، كان طربوشه أوسع من رأسه فهبط حتى ارتكز على أذنيه ، وغطى جبهته إلا قليلا وكاد يلمس حاجبيه ، وكان على صدغيه خليط متناثر من آثار الجدرى ومن بقع جلدية مختلفة ألوانها ، حلق شاربيه إلا جزءاً صغيراً جداً تكوّم تحت أنفه كالخنفساء ، ثيابه كلها عجائب ، فبدلته مصنوعة من قماش لم يرد ناسجه أن ينتهي إلى هذا الذي انتهى إليه ، وسترته طالت حتى بلغت ركبتيه ، فهي سترة ونصف سترة أو هي ثلاثة أرباع الجبة ، فلا هي هذه ولا هي تلك ، وقيصه لم تنظمه مكواة ، وحذاؤه طويل شاحب ، وقد علّق أحد سرواليه بأعلى فرد من حذاءيه فأنحسر عن شيء من ساقه ، وكان الطباشير يلون يديه وكميه وصدر سترته ، وتناثرت منه بقعة أو بقعتان فوق طربوشه ؛ أخذ يبدل السكتاب بين يديه ، فيمسكه بيميناه تارة ويسراه تارة ، وكلما صنع ذلك جذب صدر سترته بيده التي أطلق سراحها ، ثم وضع يده في جيبه ، ثم أخرجها ، ثم سعل سعالاً خفيفاً ، ثم استرق إلى نظر المتهيب المرتاب كأنه طير وأنا صائده ، ولم أعجب لهذا منه ، إذ الناس في بلادنا رجالان : صائد ومصيد ، وقد يكون الرجل صائداً في موضع ، مصيداً في موضع آخر ، وقد يكون مصيد اليوم صائد الغد ...

يا سبحان الله العلي العظيم ! أمن هذا الرجل يستمد هؤلاء
الأطفال العلم ، ويستقون الأخلاق ، ويستوحون أصول الذوق
الجميل ؟ أى عجب بعد ذلك إن شب هؤلاء الأطفال رجالا
وساروا في شارع البحر بشعر الإسكندرية الجميل فأكلوا الخس
وقذفوا بأوراقه في طول الشارع وعرضه ، لا ترى أبصارهم قبح
ما يصنعون ؟ أى عجب إن شب هؤلاء الأطفال رجالا فمصوا
القصب في عربات الترام وألقوا بالنفل في أرض العرب ، لا يدركون
في ذلك شيئا يذم ويعاب ؟ أى عجب إن شب هؤلاء الأطفال
رجالا فلبسوا عمام وطرايش وطراير وطاقيات ولاسات
وبدلات وجبات ، كأنهم البهلوانات في سوق الأراجيح ، ولا
تقع أبصارهم من ذلك كله على شيء يחדش الذوق الجميل ؟ إن
هذا المعلم بين هؤلاء الصبيان هو بعينه ذلك القنديل الضئيل في
البهو بين التوايت ، هو أقرب في طبيعته إلى الظلام منه إلى
الضياء ، هو إلى الجهل والتجمل أدنى منه إلى العلم والتعليم .
ووقف سيل خواطري حين قال المعلم بصوت خشن غليظ :

« اقرأ يا شاطر » .

وقرأ الشاطر : جَلَسَ ... وَقَفَ ... أَكَلَ ... ضَرَبَ ...
حتى أكمل على هذا النحو اثنتي عشرة كلمة ، فقلت له في لهجة

المفتشين — والمفتشين نفمة خاصة — : « تهجّ الكلمة التالية
يا شاطر » .

فنظر الشاطر إلىّ فألى الكتاب فألىّ مرة أخرى فألى معلمه
فألى الكتاب وقال : بَ ... فتحة بَ ... تَ ... فتحة تَ ... كَ
فتحة كَ ... زَرَ عَ ...

هي الدقة الثالثة عشرة التي هي خطأ في ذاتها أولاً ، ومدعاة
إلى الشك في صدق الدقات السوالم ثانياً ، وهي ثالثاً بمثابة
النذير الذي يعلن لك في صوت جهير أن الآلة كلها فاسدة
لامندوحة لها عن إصلاح وتغيير ، لم يتعلم هذا الصبي علماً ، ولم
يتعلم خلقاً ، ولم يتعلم شيئاً من قواعد الذوق الجميل .

وغادرت حجرة الدراسة من فوري لألتقي مرة أخرى
بالحارس الذي شد على وسطه حزاماً أحمر ، فأدخلني مصعداً
وضغط فيه على زر وتركني ، فطلع بي المصعد ثلاثة عشر طابقاً
حتى بلغ بي قمة البناء ، وانفتح بابه على مقهى صاحب بالأصوات
المتنافرة : طق ، طاق ، سَأ ، صَأ ، سَأ ، دودو ، كشش ، طق ،
طاق ... تصفيق وصياح وضرب بأحجار النرد وقهقهة من رجال
جلسوا إلى مناضد رصت في ثلاثة صفوف ، في كل منها أربع ،
ثم انفردت المنضدة الثالثة عشرة في ركن وحدها ، وجلس إليها

رجل في نحو الخامسة والثلاثين ، فجلست إلى جانبه وحيثه فحيتي :

— ما هذا المكان ؟

— ندوة الجامعة .

— وأنت من أبنائها ؟

— تعنى من أبناء الجامعة ؟ نعم ، تخرجت فيها منذ ثلاثة عشر عاما ، تلاميذى هم اليوم طلاب الجامعة .

— أية مادة درست ؟

— أنا دكتور في التاريخ كانت رسالتى « اسكندرية

الإسكندر » .

— موضوع لطيف .

— لم اختره للطفه ، إنما اخترته فى إثر حادث وقع لى فى الإسكندرية ... كانت لى سيارة جميلة أسوقها ، وحدث ذات يوم إذ كنت أصطاف ، أن اثنتى بسيارتى من شارع إلى شارع فصدمتنى سيارة جاءت من الجهة المقابلة ، صدمتنى صدمة ينحطم لها الصلب الصلب ، فما انخدشت من سيارتى قلامة ظفر ، وعجب الناس للمعجزة ، ولو عرفوا سر المعجزة ما عجبوا ، فقد كان فى سيارتى مصحف شريف ؛ ويشاء الله أن يجالس والدى فى هذه اللحظة عينها وهو فى داره رجلٌ كشف الله عنه

حجاب الغيب ، فصاح : الله أكبر ! وسأل والدى : ما الخبر ؟
فقال الرجل : كان ابنك بين أنياب الموت فأنقذه من الموت
سر من الله .

هنا دقت ساعة الندوة ثلاث عشرة دقة ، واستيقظتُ عند
الدقة الثالثة عشرة لأرى أن غرفتى لم تزل فى ظلمة من
الليل البهيم .

شعر مصبوغ

رأيت رجلاً بين خمسينه وستّينه صبغ بالحناء رأسه وشاربيه
ليطمس بالصبغة ترقيم الزمن .

لكن الزمن أبى أن يلين ويستكين ، فطفق كل منهما
يناولش الآخر في لباقة المحتال الماهر ، مناوشة كانت أقرب إلى
الملاعبة والمداعبة منها إلى القتال الجاد العنيف ؛ فصاحبنا ما ينفك
لشبيهه راصداً — زجاجة الصبغة في يمينه والمرآة في يسراه —
كما لاح له من شبيهه ضوء هنا أو لمع له برق هناك ، قابله بهذا
الذى أعده له الصيدلى في دقة الفن كله والعلم كله ، حتى يخدع
الناس عن هذه الشيوخوخة الكريهة التى أنشبت فيه الأنياب
والأظفار ، بل حتى يخدع نفسه عن هذا الهرم الذى يدنو به نحو
الفناء بخطو دءوب ؛ ثم ما ينفك الشيب أن يغافله حيناً بعد حين ،
فيطل عليه بشعرات بيض ينثرها فى الشمال مرة وفى الجنوب
مرة ، وفى وسط الرأس تارة ؛ وطوراً يستبدل بهذا الضرب من
قتال السكر والفر هجوماً عاماً منظماً ، فيدفع لصاحبنا شعره المصبوغ
كله إلى الوراء خطوة ، فيبديه أخضب الأعلى أبيض الأسافل ؛

وينبغي أن نسجل للحقيقة والتاريخ أن الشيب في هذه المعركة كان أنبل من صاحبه ؛ فصاحبه دائماً يسدد طعنته في الخفاء ، ولا ييوح بسر قتاله إلا إلى أخلص الخلصاء ، وأما الشيب فيرد له الطعنة علناً وفي وضوح النهار .

وأعجب العجب أن صاحب الشعر المصبوغ لم يدرك أن موطن الشيب في دماغه ، وأن جذوره قد ضربت في جوفه وأحشائه ، وأنه إن أراد للشباب رجعة ، فليتوكل على الله وليضع أمله في أبنائه .

ذكرت صاحب الرأس المصبوغ حين خرجت بالأمس إلى ضاحية ريفية في شمال لندن ، ونحن الآن من فصول العام في فصل الخريف ؛ والفصول في انجلترا بينة المعالم واضحة الحدود ؛ فلست بمستطيع أن تخطي الشتاء إذ يكسو لك ما حولك بين آونة وأخرى بالثلج والصقيع ؛ ولست بمستطيع أن تخطي الربيع والدنيا من حولك كلها تورق وتزهو ؛ أو أن تخطي الصيف وقد خمدت النار في المدافئ وانقطع عنك نداء العداد الذي لا يشبع بسيل من الشلنات تلقى في جوفه صباحاً وعصراً ومساءً ؛ ثم لست بمستطيع أن تخطي الخريف وكل ورقة تقع عليها عينك فوق الشجر قد أخذت تجف وتذبل استعداداً للسقوط .

ذكرته حين خرجت بالأمس إلى خلاء ريفي وافتشت
معطف المطر ، وأسندت ظهري إلى جذع سديانة ضخمة ، وعلى
بعد أمتار مني دار ريفية صغيرة إلى جانبها شجرة لم أدر ما نوعها ،
لم يلبث أن جاءها غلام في نحو الثانية عشرة من عمره ، وارتقى
صندوقاً خشبياً وفي إحدى يديه وعاء فيه طلاء وفي الأخرى
فرجون ؛ ثم أخذ يغمس فرجونه في الوعاء ويطلّي ما اصفرّ من
حواشي الورق ليرد له لونه المفقود ، ولبث على هذا النحو ساعة
يعمل في أناة وصبر ؛ ولم يكن خلال هذه الساعة قد أكمل نصف
غصن واحد ، وهبت ريح خفيفة أسقطت له بعض ما صبغ ؛
وعندئذ خرج من الدار شيخ محدودب الظهر ، وصاح بالغلام :
— ماذا تصنع يا ولیم ؟ .

— أصبغ بالطلاء الأخضر ما اصفر من أوراق شجرتي .
إنها يا عمّاه تذوي وتنحدر إلى فناء سريع .
فأمرّ الشيخ كفه على صدغيه وابتسم ، لكنه لم يقل
شيئاً . وإنه لمن العجب حقاً ألا يظن الغلام — مهما يكن
من عقلته وقلة خبرته — إلى أن الصبغة الخضراء لن تقف
دورة الفلك في وجه الشتاء ، كلا ولن تجدى شيئاً في دفع
الفناء ؛ وأنه إن أراد للشجرة حياة فليتوكل على الله

وليحسن لها الغذاء وليرقب بالرجاء نهضة الربيع .

وذكرت صاحب الرأس المصبوغ ، حين رأيت صبيا له ساعة اختلت عدتها فضَلَّتْ عقاربها ، وعز عليه ألا تدل ساعته على الزمن كما تدل عليه الساعات عند سائر الناس ، فصمم أن يهديها هو إلى الزمن بدل أن تهديه ؛ وكان في بهو منزلهم ساعة دقاقة كلما دقت ربع الساعة أو نصفها ، أدار الصبي عقارب ساعته بيديه ، حتى ضاق صدرأ بهذا العناء المتصل ، فقد كان يرجو أن يؤدي إلحاحه وإخلاصه في أن تتخذ العقارب وضعها الصحيح إلى إصلاح ما فسد ، ولم يدرك أبداً أن ساعته لن يصلح لها أمر إلا إذا أصلحت عجلاتها وتروسها حيث العطب والفساد .

وذكرته إذ ذكرت جارة لنا مرض وحيدها وارتفعت حرارته إلى درجة أشرفت به على الموت ، ولم تدر الأم المسكينة ماذا تصنع ، فأخذت تضع على رأس مريضها وجسده ثلجاً بعد ثلج ، لتزيل عنه العلة بإزالة ظواهرها ، فما لبثت أن أزالته فعلا عن ولدها العلة وظواهرها معا ، لأنها أرأته عن الحياة .

وذكرته حين ذكرت أمة بأمرها نسجت إصلاحها على منوال الشعر المصبوغ ، الذي يبدى لك كل علامات الشباب إلا شيئاً واحداً ، هو فتوة الشباب ! ففي مدارسها كل ما في مدارس

العالمين من أدوات ومعدات وتلاميذ وأساتيد ، إلا شيئاً واحداً هو التعليم ، إذا أردنا بالتعليم تربية تخلق وجهة النظر إلى الحياة رأساً على عقب ؛ وفي جيشها كل ما في جيوش العالمين من ضباط وجنود وذخيرة وعتاد ، إلا شيئاً واحداً هو أنه لا يقاتل ؛ وفي دستورهما كل ما في دساتير الأرض من مساواة بين الأفراد ، إلا شيئاً واحداً هو أن ليس بين الأفراد هذه المساواة .

ذكرت صاحب الرأس المصبوغ حين ذكرت أمة بأسرها سرى الطفيلان في دماؤها ، وتمكن من أنسجتها وأعضائها ، ثم أرادت لدائها دواء ، فأثبتت في محفوظاتها أن الناس سواسية ، وسجلت في دستورهما أن يكون فيها — كما في سائر الأمم — انتخاب ونواب ؛ ولعلها لم تدر أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

فإن وجدت — وما أظنك واجداً — بين شعوب الأرض شعباً ، الوالد فيه يرى ألا أبوة بغير سياسة الحجاج في بيته ، والولد يرى ألا بنوة بغير خشوع وخضوع ؛ الزوج فيه يرى ألا رجولة بغير احتسار للرأى ، والزوجة ترى ألا قرار لحياتها بغير إذعان ؛ المعلم فيه يرى ألا تعليم بغير أن ينصت التلاميذ في صمت لعباراته كأنما هو راع في معبد ينطق لعباد الله بما خطَّ لهم القضاء

في اللوح المحفوظ ، ويرى التلاميذ ألا تعلم بغير أن يحفظوا
 مؤمنين مصدقين لما قاله المعلم من قول ماثور : الصانع فيه لا يلحق
 صناعته لصبيه إلا إذا ساهه صنوف العذاب ألوانا ، وصبيه يرى
 ألا سبيل إلى تلقى الحرفة دون أن يستسلم لهذا القضاء المحتوم ؛
 الرئيس فيه يرى من حقه على مرءوسه أن يطغى ويتجبر ، والمرءوس
 يرى من واجبه نحو رئيسه أن يستضال ويستصغر ؛ المالك فيه
 يرى من حقه على أجيده أن يستغله ويستئذنه ؛ والأجير يرى من
 واجبه نحو المالك أن يستغل وأن يستذل ، الخدم فيه لا يهديه
 ضميره أن يكون لخادمه ما لأبنائه من حقوق البشر ، والخدام
 لا يحس أنه كهؤلاء الأبناء ، بشر له ما لهم من حقوق ، الشرطي
 فيه يرى من حقه أن يسب ويصفع ، وصاحب الحاجة عند
 الشرطي يرى من واجبه أن يغضى عن شيء من السباب
 والصفعات .

إن وجدت — وما أظنك واجداً — بين شعوب الأرض
 شعبا فيه هذا كله ، وأكثر من هذا كله ، ثم وجدت في
 محفوظاته أن الناس سواسية ، وفي دستوره أن له انتخابا ونوابا ،
 فاعلم أنه شعب عز عليه أن يرى ضعفه ماثلا أمام عينيه ، فصبغ
 بالحناء رأسه وشاربيه .

تجويد النمر

أنا مدين بساعة من أجمل ساعات التفكير للكاتب الفاضل
الذي أدخل تعديلا على نظرية التطور كما رآها دارون ، فجعل
الأناسي تنتمي إلى أصول عدة ، لا إلى أصل واحد ؛ فالناس في
رأى الكاتب الفاضل منهم الكلب الذليل ، ومنهم الخنزير
القدر ، والفأر الجبان ، والثعلب الماكر ، والحمار العبيط ، كما أن
منهم الليث المصور ؛ وإنه لمن الشطط والإسراف حقاً أن نحاول
التوحيد فيما أراد له الله اختلافا وتباينا .

تلك لمسة عبقرى لا شك في نبوغه ، والرأى فيما يظهر حق
لا ريب فيه ؛ فليس الأمر هنا خيالا شطح بالكاتب فطار به
عن الواقع ، أو شطح به الكاتب وهو من برجه العاجي في عزلة
عن الناس ، بل هو مستمد من ذلك الواقع نفسه ومن هؤلاء
الناس ؛ ودنيا الواقع لم تختف ، ولن تختفي إلى آخر الدهر ، فإن
شئت تحقيقاً لما نزعته لك فسير في الطريق مفتوح العينين ،
لا نطلب منك أكثر من هذا ولا أقل ؛ على أننا نشترط شرطاً
واحداً ، وهو ألا تنخدع بالإيهاب البشري الذي يلبسه الناس في

الطريق ، بل احمل عراه بخيالك — ولا شك أن لك نصيباً من
الخيال قل أو كثر — وسترى في جوفه الكلب أو الخنزير
أو الفأر أو الحمار أو ما شاءت لك الظروف أن تجد ؛ ونقول احمل
عري هذا الإهاب البشرى بخيالك ، لا لأننا نظن أن هذه
الصنوف الحيوانية السكامة في أجواف الآدميين ضرب من
ضروب الخيال ؛ ولكننا نريد لك السلامة والعافية ، فقد تبقر
إنسانا لتخرج منه حيوانه المستور ، فإذا الدولة تقتضيك حياتك
ثمناً لما صنعت يداك .

والساعة الجميلة التي أنا مدين بها لكاتبنا الفاضل ، هي
ساعة استبطنت فيها دخيلة نفسى أولاً ، ثم استعرضت بعدئذ
«ش» و «ب» ممن أعرف من الناس ، وحاولت أن أتعقب كلاً
إلى عروقه الأولى ؛ وما إن بدأت بالنظر إلى طوية نفسى حتى
اعترانى مزيج عجيب من غبطة وذهول ، فقد سرنى أن أصيب في
التطبيق نجاحاً سريعاً ، فقد كان حسبي نظرة واحدة سريعة
لأشهد الحيوان السكامن في جوفى جلياً واضحاً برأسه الضخم وأذنيه
الكبيرتين ونظرته البلهاء ؛ ولكن كم حز فى نفسى ألا أجد فى
إهابى إلا هذا الحمار العبيط ! لم أجد هناك الليث المحصور الذى
تمنيت ، بل لم أجد هناك الثعلب الماكر ، فلأن أكون ما كرا

ذا دهاء والتواء خير ألف مرة من أن أكون حمارا تتعاقب عليه
الأعوام عقدا بعد عقد ، فلا يعرف كيف يظفر منها بما يظفر به
سواه في أيام معدودة ؛ على أنى ما كدت أبدأ في كشف الغطاء
عن دخيلة «ش» و «ب» حتى تعثرت وبدت لى صعاب لم أكن
أتوهم وجودها ؛ فذهب الكاتب الفاضل بسيط في ظاهره شديد
التعقيد في حقيقته ؛ وقد لا يكون في الأمر تعقيد ، وإنما هو
قصور منى وعجز في قدرتي ؛ ولا بأس هنا من الاعتراف للقارىء
بما يصعب جداً على إنسان أن يعترف به ، وهو أنى في موقف
لا أحسد عليه من ضعف الإدراك ؛ أنا لا أتواضع ، فقد علمتني
التجربة المرة في أعوام جاوزت بها الأربعين ؛ أن التواضع في
مصر المحروسة بعناية الله سرعان ما يصبح ضعة ، والتهاون فيها
لا يلبث أن ينقلب هوأنا ؛ وإن شئت الدليل على صدق ما أقول ،
فدونك مقياس الحياة العملية الناجحة ، قسنى بهذا المقياس ، ترى
أنحدر إلى شيخوختي بما يبدأ به الناس عادة شوط الشباب ،
تر البداية عند الناس منتهى ؛ وإذا علمت أن منزلتك عند الناس
معيارها نجاحك في الحياة العملية عرفت فداحة المصاب ؛ ثم ألم
أنبك منذ قليل أنى صوبت نظرى إلى جوفى فما راعنى إلا حمار
عبيط ينكشف عنه الستار ؟

إذا فقد لا يكون في الأمر تعقيد ، وقد تكون العلة قصورى وعجزى ؛ وسواء كانت هذه أو تلك ، فنحن الآن في موقف المؤرخ يقص على الناس ما وقع ، والذي وقع هو أنى أزلت الغطاء البشرى عن «ش» و «ب» فوجدت في كل منهما أكثر من حيوان واحد ، وكان النمر عنصراً مشتركاً فيهما معا ؛ ففي «ش» رأيت كلباً ونمراً وفي «ب» رأيت فأراً ونمراً ؛ هنا أسقط في يدي ، ولم أدر بماذا أفسر ما أرى ، فلا هو يجرى مع دارون في جمع الناس تحت أصل واحد ، ولا هو يجرى مع مذهب الكاتب الفاضل في تعدد الأصول ؛ بل الأمر فيما أرى يقع وسطاً بين المذهبين ، فأيهما أختار لنفسى رأياً ومذهباً ؟

ولم تدم حيرتى إلا لحظة قصيرة ، ثم استجمعت شجاعتي وقواى ، وانتهيت إلى قرار ، فلماذا أضعف أمام دارون ؟ ولماذا أضعف أمام الكاتب الفاضل صاحب التعديل ؟ أليست الحقائق أمامي جبهة الصوت لا تدع مجالاً لريب مرتاب ؟ أليس هذا «ش» أمام ناظرى فيه الكلب والنمر في آن معا ، ثم أليس «ب» فيه الفأر والنمر جنباً إلى جنب ؟ إن سلامة المنطق تقضى بأنه إذا تعارضت النظرية والحقائق فلا بد من نسخ النظرية استمساكاً بالحقائق ، ولا بد من إعادة التفكير لعلنا نهتدى إلى نظرية أخرى

تتكافأ مع الحقائق التي تراها العيون وتحسها الأيدي ؛ فلماذا لا أدلى بدلوى في الدلاء لعلها تخرج للناس بقليل من الماء ؟ وإذا فهالك ما انتهيت إليه :

ليس الناس جميعا فروغا عن أصل واحد ، كلا ولا هم بغير هذا الأصل الواحد ؛ فإذا استثنينا الحمار العبيط دون سواه ، وجدنا كافة الناس تتفق في شيء هو النمر ، ثم تختلف في أشياء هي شتى صنوف الحيوان ؛ فكل فرد من الناس — ما خلا الحمار — في جوفه نوع من الحيوان وإلى جانبه نمر ، وهو يبدى من هذين التوأمين ما يقابل به الموقف على أتم وجه وأوفاه . فقد رأيت «ش» في موقف بذاته كلبا ذليلا وضعيا خافت الصوت خافض البصر حتى إذا ما سنحت له الفرصة المواتية « تنمر » ؛ وقد رأيت «ب» ذات ساعة فأراً ضئيلا هزئلا رعديداً جبانا ، حتى إذا ما سنحت له الفرصة أيضاً « تنمر » . وهكذا قل في شتى أفراد الإنسان ، إلا من كان يؤوى في بطنه حماراً عبيطاً ، فهذا قد تواتره ظروف « التمر » ولا يفعل ، لسبب بسيط جداً ، هو أنه ليس في جوفه نمر إلى جانب الحمار ، والشئ لا يخلق من العدم . أحب أن أؤكد للقارئ الكريم أنني فيما أروى له عن «ش» و «ب» إنما أصدر عن واقع شهادته بعيني ، ولست هنا

بالمأجور الذى تضطره إلى الكذب دواعى الارتزاق . ولو كان «ش» و «ب» هذان من صغار الناس ، لجاز لك أن تقول : لكن هذين الرجلين اللذين سقتهما مثلاً ، صغيران حقيران ، تجوز عليهما الذلة والمسكنة ، ولو وقعت على رجلين من كبار القوم لوجدتهما فى أغلب الظن نمرين خالصين لوجه الله ، لا يشوب بأس النمر فيهما ضعة الكلاب ولا جبن الفئران ؛ ولكن اعتراضك مردود عليك قبل أن تبديه ، لأن «ش» كان صاحب عزة و «ب» كان صاحب سعادة ؛ والعزة فى بلادنا — كما تعلم — أقل شأنًا من السعادة ، فكل أربع عزات أو خمس فيما أظن تساوى سعادة واحدة — ولا بأس هنا من تذكر أيها القارئ (مفترضا أنك مثلى لست من أصحاب العزة ولا من أصحاب السعادة ، لأن الطيور على أشكالها تقع) لا بأس من تذكر هنا بالحقيقة المرة التى لا بد أن تكون قد عرفتها وأحسستها منذ زمن طويل ، وهى أن الأعداء فى مصر قليلون ، وأقل منهم السعداء ، وأنه لا يجوز لك أن تكون عزيزاً أو سعيداً إلا إذا صدر لك بذلك قانون ، وإلى أن يصدر لك مثل هذا القانون ينبغى أن تظل شقيماً ذليلاً — ونعود إلى صاحب العزة «ش» وصاحب السعادة «ب» وقد التقيا ذات يوم ؛ وقد كنت وثيق

الصلة بصاحب العزة ، فلم أعهد فيه إلا نمرًا يكشر للناس عن
أنيابه ويلفظ الشرر من عينيه ؛ لا يخرج الألفاظ من شفثيه
هينة لينة ، كما أخرجها أنا أو كما أخرجها أنت ، بل كانت له
طريقة عجيبه في إخراجها ، إذ كان يضغط على بعض الفبرات
ويصعد بصوته تدريجًا بحيث يتحتم أن يجيء آخر الكلام
أعلى صوتًا من أوله ، وكنت أسمع أن حظوته مكسوبة عند
رؤسائه لهذا ، كما كنت أعلم أن جانبه مرهوب عند مرءوسيه
لهذا أيضًا — وكما أثار هذا الرجل في نفسى أعماق الحشرات ،
لأن في صوتى تسلخًا يستحيل معه الصعود في مناصب الدولة —
رأيت هذا النمر الضارى ذات يوم بين يدي صاحب السعادة
فرايت عجبًا ، رأيته باسطًا كفيه على صدره كأنه أمام ربه ساعة
الصلاة ، ثم رأيته ... وفيه الوصف وكل مصرى يعلم ما أردت
أن أقول ؟ وهنا لا أستثنى صاحب عزة أو سعادة ؛ فأنا أتحدى
علنا صاحب عزة ألا يكون له نمر بين أصحاب السعادة ، أو صاحب
سعادة ألا يكون له نمر بين أصحاب المعالي ، أو صاحب معال
ألا يكون له نمر بين أصحاب الدولة ، أو صاحب دولة ألا يكون
له نمر بين أصحاب الرفعة .

النمر ! النمر ! النمر !

هذا النمر الرابض في جلودنا هو بيت الداء وأس البلاء ؛ لو
يعون الله أخرجناه ، ومن جذوره اقتلعناه ، صلح من أمرنا
مافسد واستقام من حياتنا ما اعوج ؛ لو أخرجنا من أجوافنا هذا
النمر الضارى ما وجد الكلب منا داعياً أن يذل ، ولا الفأر مبرراً
أن يجبن ... لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الأمنية ودونها
— فيما يبدو — خطر القتاد ؟

لكن مهلاً ، فأصعب المسائل قد يزول بأسهل الحلول .
فقد ذكرت الآن شكسبير — لك الله يا شيخ شعراء
العالمين ! — وذكرت روايته « ترويض النمرة » : رجل عريض
الثراء له ابنتان ، كبراهما نمرة شמוש جموح ، وصغرها وديعة
رقيقة ، والخطابون للصغرى كثيرون ، لكن الوالد أبى أن يأذن
بزواج الصغرى قبل أختها الكبرى ، فمن لهذه الكبرى بالخطاب
وهى النمرة الضارية ؟ وسمع رجل بقصة الغنى وابنتيه وعرض
على الغنى الزواج من كبرى ابنتيه إذا هو أعطاه مقداراً معيناً من
المال ، وتمت الصفقة وأخذ العريس عروسه إلى بلده ، فكان
كلّما وضع مع الوحش المفترس فى قفص واحد ؛ لكن صاحبنا
استسهل الصعب وابتمسم استخفافاً بما استقله سواه من الرجال ،
وكان علاج المشكلة عنده حيناً يسيراً ، وهو تجويع هذه النمرة ،

فيأتي وقت الغداء فلا طعام ، ويأتي وقت العشاء ولا طعام ؛ وتم ذلك في لباقة كادت تقنع الثمرة البشرية أن الرجل إنما صدر في كل ذلك عن حب أصيل ، لكنها ككل الناس تريد الطعام لتعيش ؛ وما زال الرجل بها تجويعاً حتى صارت في قبضة يده ، يشير لها إلى الشمس قائلاً : هذا هو القمر ، فتقول نعم إنه القمر يا مولاي ، ويشير لها إلى الرجل الشيخ تغضّ وجهه واييضا لحيته قائلاً : وهذه فتاة حسناء . فتقول : نعم يا مولاي ما أروعها من فتاة حسناء !

وشبيه جداً بهذا منهج جماعة اشتراكية في إنجلترا نشأت في أواخر القرن الماضي ، وكان لها كل الفضل في قلب الحياة الإنجليزية بحيث آل الحكم كما نرى إلى أيدي اشتراكية خالصة ؛ هذه الجماعة تسمى نفسها « الجمعية الفابية » نسبة إلى قائد روماني كان يدعى « فابيوس » وكانت خطته في الحرب مراوغة العدو حتى يرهقه دون أن يهجم عليه بهجمة واحدة ؛ وكذلك أرادت هذه الجماعة أن تحارب أعداءها ، لا بالثورة عليهم ، بل بإرهاقهم ، بحيث يتلفتون فلا يجدون في الميدان مادة تمكنهم من الصولان والجولان .

والآن اليك أيها القارئ أسوق الحديث ، فليس من شك

في أن عليك نمراً يتربص بك الدوائر — وأنت سعيد إذا كان لك
نمر واحد — ثم ليس من شك في أنك تريد القضاء على هذا النمر
لينزاح عن صدرك كابوس يقض لك في الليل مضجعك ؛ فهأنذا
أصف لك خطة القتال ، لا أريد منك جزاء ، وإن كنت أريد
الشكور ؛ التجويع هو وسيلة القضاء على النمر ، إن النمر يتغذى
وينمو ويتزعرع كلما أفسحت له أنت من مجال « التمر » ، وأنا
لا أشير عليك بأن تطلق عليه نمرك لتجاريه تنمراً بنمر ؛ إنك
تخلص لنفسك ولوطنك لو جوعت هذا النمر أينما وجدته ، فكلما
بدت على المتسلط عليك أعراض « التمر » انسحب من أغرفته
واتركه وحيداً بغير غذاء ، عندئذ يأكل النمر بعضه ، ويقضى
على نفسه القضاء الأخير ، فيريح ويستريح .

الكبش الجريح

وثب الذئب على الكبش فمزق منه وانتهش ، وفرح
الذئب لأن في طبيعته أن ينهش ويمزق ؛ كذلك فرح الكبش ،
ولم أكن أعلم أن في طبيعته ما يستطيب النهش والتمزيق .
فرح الذئب حين مزق وانتهش ، لأن له في ذلك طعاما
وشرابا فغذاء ونماء ؛ إن من يلوم الذئب لافتراسه الكبش كان
كمن يلوم النار لأنها تلتهم الهشيم ، والسييل لأنه يندفق هداراً من
قمة الجبل .

لقد قيل إن الدليل على وجود الله أقوى الدليل هو ما تراه
في الكون من تنسيق جميل ؛ قلت : وهذا التنسيق ما معناه ؟
قيل : معناه الذي ليس له معنى سواه هو ما بين الأشياء من
توافق كأنها فيه على اتفاق ؛ فضاء الشمس له طبيعة خاصة ،
وشبكية العين لها طبيعة خاصة ، أعدت بحيث تتلقى ذلك الضوء ؛
ولو تغير ضوء الشمس قيد أنملة أو تغيرت شبكية العين قيد شعرة ،
لكان ضوء الشمس لنا عبثاً في عبث ، ولكانت أعين الإنسان
والحيوان ضرباً من الإسراف والتبذير ؛ وكذلك قل في الذئب
والكبش ، فلو لا طراوة الكبش لكانت أنياب الذئب ومخالبه

زوائد لا تقتضيها الحكمة ولا يرتضيها حسن التدبير ، فمن كمال الله وجلاله أن للذئب أنيابا تنهش الكباش ومخالب تمزقه وتفريه قال الإنسان : إني موجود لأني أفكر ، فكان بقوله هذا فيلسوفا . وقال الذئب : إني موجود لأني آكل وأفترس . فأثبت أن الفلسفة ليست وقفا على الإنسان .

قلت للذئب : هلا سموت بنفسك فأشفقت على هذا المسكين ؟ فقال الذئب ساخراً : هكذا يسمو الناس ، لكن ما هكذا تسمو الذئاب . ومن الذئاب ما يسكن البيوت مع الناس ومنها ما يسكن الغاب .

ليس على الذئب في ذلك كله لوم ولا تثريب .

إنما يقع اللوم والتثريب على صاحبنا « الخروف » الذي استمرأ ضرب الخالب واستلذ وقع الأنياب ، دماؤه تسيل وعلى شفثيه ابتسامة ، ويبلغ الذئب فيه ويلعق وفي عينيه نظرة استسلام ورضى .

عبتاً ينبرى بقلمه كاتب ليدفع الأذى عن هذا الخروف ، وعبتاً يرتقى المنبر في سبيله خطيب ، لأن عدوان الذئب يصادف في نفسه القبول ، فليعدل الخروف من طبيعته أولاً ، وبعد ذلك

فليكتب الكتاب ليدفعوا عنه العدوان وليخطب الخطباء .

يضحكنى آناً ويحزنى آناً أن أرى أنصار الكرامة الإنسانية يتصدون للذئب قائلين : أهكذا يا ذئب يكون الإخاء وتكون المساواة بين عباد الله ؟ ولو أنصفوا لاتهموا نحو الحروف وحققوه بما يشيع في عضلاته الصلابة وفي لحمه المرارة ، ليخاطب الذئب في ثقة وإيمان كلما خطر للذئب خاطر العدوان : التمس يا ذئب غيرى إن لحمى كان مرأ .

قلت للحروف : هلا أخذتك النخوة يوماً ففضبت غضبة الكرام التى لا تقف عند حد اللغو والكلام ؟ هلا أخذتك النخوة يوماً فأبيت على الذئب هذا العدوان ؟

قال : كيف عرفتنى خروفاً وقد تخفيت فى ثياب الرجال ؟

قلت : عرفتك فى مائة موضع وموضع ، أسوق لك منها مثلين :

عرفتك حين أردت أن تخاطب سيدك الذئب يوماً ، فضغطت على القرطاس بحافر وأمسكت القلم بحافر ، وهزرت قرنيك تفكر كيف توجه إلى الذئب الخطاب ، بحيث تباعد بينك وبينه ، كأنه السليم وكأنك الأجرب ، وكأنك تخشى

عليه المرض إن دنوت منه ؛ أردت في الخطاب أن تجعل بينكما
من الكلمات عدداً يضمن له الرفعة ولا يفسد عليك الضعة التي
استمرت مذاقها ، إنك تعلم أن قوانين الغابة تجعل منكما زميلين
من ذوات الأربع ، فلو خاطبته بقولك « إلى الذئب » لما كان
عليك لوم ولا عتاب ؛ لكنك استكبرته واستصغرت نفسك ،
أعززته وأذلت نفسك ، عظمته وحقرت نفسك ، لأن الصغار
والذلة والحقارة أصبحت جزءاً من طبعك ، لا تطمئن إلا بها
ولا تجد نفسك إلا بينها ؛ عرفتك خروفا حين رأيتك يوم أخذت
تحرر الخطاب لسيدك الذئب ، وتهز قرنيك مفكراً كيف توجه
إليه الخطاب ، بحيث ترضى كبريائه وتشيع في نفسك ذل العبيد ؛
فكتبت أول ما كتبت « إلى حضرة الذئب » ، ولكنك رأيت
المسافة بينكما تكون بمثل هذا الخطاب أقصر مما ينبغي ، فلا يكفي
أن تتجه بالخطاب إلى « الحضرة » مباشرة — و « الحضرة »
معناها فيما أظن مكان الذئب لو خلا من الذئب — فلم تحتمل أن
تواجه بخيالك مكان الذئب ، حتى وإن خلا منه ، مواجهة
مباشرة لا تحميك دونها الموانع والجواجز ؛ فمحوت وكتبت :
« سيدى حضرة الذئب » ؛ لكنك وجدت مرة ثانية أن الشقة
بينكما لم تزل أقصر مما ينبغي ، فعزيزت قرنيك ومحوت ثم كتبت :

« سيدى ومولاي حضرة الذئب » ؛ لكنك وجدت مرة ثالثة أن المسافة لم تزل بعد قصيرة ، وأنها ينبغي أن تطول بقدر المستطاع فمحوت وكتبت : « سيدى ومولاي حضرة صاحب المجد الذئب » ، لكنك للمرة الرابعة لم ترض عما كتبت وطاف برأسك خاطر أزعجك وخوفك ، إذ قلت لنفسك : إن الذئاب في الغاب كثيرة ، فكيف أسوى بين سيدى هذا وبين زملائه ؟ لا بد لي من علامة تعلو بذئبي فوق الذئاب ، ليزداد ضخامة فأزداد ضالة ، فمحوت وكتبت « سيدى ومولاي حضرة صاحب المجد ذئب الذئاب وملك الغاب » ؛ وهنا افترت شفتاك عن ابتسامة رأيت فيها الغبطة والرضى .

وعرفتك خروفا حين رأيتك ذات يوم وقد ارتديت بدلة من الحرير الأبيض الناصع ، وأخذ يرفرف على صدرك العريض رباط ملون بالأحمر والأبيض يخطف البصر بحمال ألوانه ؛ فتلت شاريك ، وغطيت بالطربوش قرنيك ، وضربت الأرض بحافريك ، ثم إلى المقهى الفاخر أويت ، وعلى مائدة فى صدر الصفوف استويت ، وصفقت تصفيقا ارتجت له الجدران .

— واحد قهوة يامنولى .

ليس من طبيعة لغتك أن تقول « واحد قهوة » ؛ ولو

تُرَكَّتْ لِنَفْسِكَ لَقَلْتُ « قَهْوَةٌ يَأْمَنُولى » ، فَإِنْ أَرَدْتَ تَحْدِيداً
عَدْدِيّاً قُلْتُ « قَهْوَةٌ وَاحِدَةٌ يَأْمَنُولى » ؛ إِنَّكَ لَا تَقُولُ لَخَادِمِكَ فِي
الْبَيْتِ — وَأَنَا الْآنَ أَفْتَرِضُ فِيكَ مَا افْتَرَضْتَهُ فِي نَفْسِكَ وَهُوَ أَنَّكَ
رَجُلٌ لَا خُرُوفَ ، رَجُلٌ لَهُ بَيْتٌ وَخَادِمٌ — لَا تَقُولُ لَخَادِمِكَ فِي
الْبَيْتِ « وَاحِدٌ طَبَقٌ يَاحْسَنُ » بَلْ تَقُولُ « طَبَقٌ يَاحْسَنُ » وَإِنْ
أَرَدْتَ تَحْدِيداً عَدْدِيّاً قُلْتُ « طَبَقٌ وَاحِدٌ يَاحْسَنُ » .

لَكِنْ « مَنْوَلَى » جَاءَكَ سَيِّدٌ غَازِيَا ، وَظَنَّ بِكَ أَوَّلَ الْأَمْرِ
خَيْرًا ، فَحَاولَ أَنْ يَخَاطِبَكَ بِلِسَانِكَ ، وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي تَرْكِيبِ
الْكَلَامِ وَتَرْتِيبِ الْكَلِمَاتِ ، فَانْفَتَحَتْ أَمَامَكَ بِخَطئه طَرُقُ ثَلَاثَةٍ
وَكَانَ لَكَ أَنْ تَخْتَارَ لِنَفْسِكَ مِنْهَا طَرِيقًا :

الأول : أَنْ تَعْلُوَ بِنَفْسِكَ وَتَسْفَلَ بِهِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ تَصْحَحَهُ
حِينَ يَخْطِئُ فْتَضِعْ نَفْسَكَ فِي مَوْضِعِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ ، وَتَضَعَهُ فِي
مَوْضِعِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، وَبِالطَّبَعِ هُوَ لَاءٌ وَأَوَّلُكَ لَا يَسْتَوُونَ .

والثاني : أَنْ تَعْلُوَ بِنَفْسِكَ دُونَ أَنْ تَسْفَلَ بِهِ ، وَذَلِكَ بِأَنْ
تَنْطِقَ بِلِقْمَتِكَ سَلِيمَةً ، وَلَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا كَيْفَ شَاءَ .

والثالث : أَنْ تَسْفَلَ بِنَفْسِكَ وَتَعْلُوَ بِهِ ، وَذَلِكَ بِأَلَّا تَبَيِّنَ لَهُ
أَنَّهُ أَخْطَأَ حَرَصًا عَلَى شَعُورِهِ وَإِبْقَاءً عَلَى عِزَّةِ نَفْسِهِ ، لِأَنَّ الْخَطَأَ

— على أى نحو جاء — نقص وعيب ، فتخطى أنت فى كلامك
ليبراً هو من العيب والنقص .

ولأمر ما ياخروف اخترت لنفسك هذا الطريق الثالث .
قل فى ذلك ماشئت ياخروف ؛ قل إنها وداعة الحملان ؛ أو
قل إنه التواضع ، وإن فى التواضع عند الله رفعة الشأن ؛ أو قل
إنه كرم النفس ، وليس الكرم بغريب على بنى القطعان .
قل فى ذلك ماشئت ياخروف ، لكنه عندى علامة لا تخطئ
على ما فى نفسك من ذل العبيد ، الذى يستمرى ضرب المخالب ،
ويستلذ وقع الأنياب .

لست أومن بالإنسان*

وقع لى منذ سبع سنوات كتاب ، لعله أنفع ما قرأت من الكتب ، لأنه غاص بى إلى قلب الطبيعة ولبابها ؛ فقد كنت قبل قراءته لا أفهم إلا عن بنى الإنسان دون ألوف الألوف من الكائنات التى تملأ فجاج اليابس وأغوار الماء ، فعلمنى هذا الكتاب النفيس كيف أفهم عن الحيوان ما يريد . فلئن كان الإنسان يلوك لسانه يمينا ويساراً ويخبط به فى أعلى وأسفل ليرمز بهذه الحركات إلى معان ، فليس الحيوان بأقل قدرة منه فى ذلك . يتناقل أفراد المعانى بهز الأذنان وتحريك الأهداب ... وقد كان علمى بلغة الحيوان موضوع فكاهة وسخرية من أصدقائى جميعا ، يلذعوننى بنكاتهم كلما نهق حمار أوزقزق عصفور ، ولكنى مضيت فى دراستى لا يثنينى ما لقيت فى الدرس من مشقة وعناء ، لأنى رأيت أنه إن جاز لمعاهد العلم أن تفنى من طلابها زهرات أعمارهم فى دراسة لغة قديمة دَرَسَ أهلها وطواهم الزمن فى جوفه العميق ، فخلق الواحد من بنى آدم أن يعنى

* كتبت ردا على مقالات للاستاذ عبد المنعم خلاف بعنوان « أومن بالإنسان » .

بلغات « أقوام » تُعاصرنا وتُعاشرنا وتبدل لنا وحشة العالم بهجة وأنساً . وأحمد الله أن كتب لى التوفيق فأعانتى على بلوغ ما أريد . فهأنذا أجلس إلى مكتبى ذات مساء ، والليل منشور الذوائب ضارب بجراحه ، والسكون عميق لا أسمع فيه إلا حفيفاً خفيفاً وهمساً خافتاً ، وهاتان فراشتان قد التقتا تحت مصباحى وأخذتا تسمران بحديث رائع جذاب ، لم أملك معه إلا أن ألقى الكتاب جانباً لأنصت ...

— لقد أنبأتنى زميلة حديثاً عجيباً هذا المساء : أنبأتنى أن كاتباً بليغاً من بنى الإنسان قد رفع القلم يحول به ويصول فى عشيرته من بنى آدم ، ليقول فى ورع وإيمان إنه يؤمن بالإنسان ! — وفيما كل هذا العناء ؟

— لأنه واحد من بنى الإنسان ! يا ليت شعرى ماذا تقول الأبقار لو تحركت بين حوافرها الأقلام ، وماذا تزعم الطييار لو كان تغريدها كلاماً من الكلام ؟

— وهل تؤمن البقرة إلا بفصيلة الأبقار ، والعصفور إلا بقبيلة الطييار ؟

وجاء برغوث يقفز حول الفراشتين جذلان فرحاً ، ويحوم فوقهما صاعداً هابطاً ؛ ولم أكن وأأسفاه قد أتقنت لغة البراغيث

لما فيها من عسر وتعقيد ، ولكنى استطعت رغم ذلك أن ألتقط من حديثه مع إحدى الفراشتين ألفاظاً متناثرة علمت منها ما يريد .

قالت فراشة تحدث البرغوث الوثاب ، وقد ضاق صدرها بلهوه وعبثه :

— هلا اصطنعت يا أخى شيئاً من الجد فى ساعة يجد فيها الحديث ؟ ما كل ساعة للهو والطرب .

— وفى أى أمر خطير تتحدثان ؟

— فى هذه النشوة التى أخذتك بغير مبرر معقول .

— وأى حافز للطرب أشد وأقوى من عالم فسيح خلقه الله لى ألهو فيه وأمرح ؟ ...

فقالت الفراشة الثانية :

— أخلق الله هذا العالم الفسيح لك أنت ؟ وماذا تقول

إذن فى الإنسان الذى سخر الطبيعة بمقله الجبار ؟ !

— ومن تقصدين ؟ أتريدى هذا الحيوان الذى ضمرت فيه

رجلان وطالت رِجلان ؟ هل تعلمين لماذا خلق الله هذا الإنسان ؟

هل تعلمين فيم سعى هذا المسكين آناء الليل وأطراف النهار ؟

ليطعم فيجود لحمه فيصبح طعاماً شهياً للبراغيث . ألا ما أشقى عالم

البراغيث إن لم يكن بين صنوف الحيوان هذا الإنسان !!
وجاءت بعوضة تسعى ، تهز جناحها الصغيرين طياً ونشراً ،
وأخذت تدنو من الفراشتين قليلاً قليلاً ، ومالت برأسها تستمع
للحديث ، فلما استجمعت أطرافه اقتربت من الفراشتين ولبثت
بينهما صامتة . وحدث ما شئت عما ملأ نفسي من سرور حين
رأيت البعوضة تهتم بالكلام ، لأننى بلغت فى فهمها حداً بعيداً
بحيث لا تخفى على من ألقاها خافية ، ولأننى عهدت فى البعوض
حكمة عجيبة وعلماً واسعاً ، لست أدري أنى له بمثله ، ولا أنفك
يوماً عن التفكير فى هذه الحشرة الغريبة ، فهل جاءها العلم مكسوباً
من تجارب الحياة ، أم هو موهوب مفطور فى جبلتها ؟

قالت البعوضة بعد صمت :

— فيم الحوار ؟

فأجابت الفراشة المتحمسة ، ولعل حماسها مستمدة من

شبابها :

— فى آدمى زعم لقومه أن كل شىء فى الطبيعة يرقب أملاً
واحداً هو الإنسان ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز : كل
شىء فى البيت مسخر للطفل ، يضحك له إذا ضحك ، ويألم إذا
تألم ! ثم زعم لقومه — ويا هول ما زعم — أن الليل والنهار

والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار والأنهار والجبال ،
وألوان الشفق في الأصائل والأسحار ... كل هذا وغير هذا من
صنوف ما يطوى الكون بين دفتيه ، إنما خلق للإنسان !!
قالت البعوضة :

— ومن يكون هذا الإنسان ؟

— قرد نهض على قدميه .

— أو يكون النهوض على الأقدام كفيلاً له بهذا كله ؟ هل
تعلمين يا عزيزتي أن هذا الإنسان أحدث صنوف الحيوان عهداً
بهذه الأرض ؟

— عرفت ذلك من زميلتي منذ دقائق .

— إن كانت كائنات الله قد خلقت لينعم بها الإنسان
وحده ، فمن ذا كان يستمتع بها قبل ظهوره ؟
فأجابت الفراشة العجوز في رزانة :

— قال كاتبهم هذا البليغ ، إن ذلك كله صَوَّرَ جاءت قبله
لتزخرف له المسرح ... إنها حروف تتألف منها الرواية التي
يمثلها الإنسان !

— ويحه ! هل صَوَّرَ الخيال لهذا المغرور أن الله قد زَيَّنَ
الطاووس بريشه الجميل ليُمَتِّعَ الإنسان ناظريه ، ورقش الأفعى

لينظر إليها الإنسان وهي تتلوى وتتجوى في صندوقها الزجاجي
في حديقة الحيوان ؟ وماذا هو قائل في الجراثيم التي تفتك ببدنه
لتعيش ؟ تلك الجراثيم التي إن أفلح في نزع واحدة منها مما يسكن
في جوفه ، باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ ... لو أنصف
المسكين لعلم أن الله جلت قدرته أبدع قصيدة الكون العظمى
منظومة منغومة ، والإنسان بيت من أبياتها . إن سر الوجود
ليستعلن في الجرثومة الضئيلة كما يستعلن في الإنسان والقرد
والأفعى ! إنها أنغام تقسق كلها لتنشئ موسيقى الوجود ! وهل
يعظم الشاعر بيت واحد أكثر مما يعظم بقصيدة عامرة بالأبيات
والقوافي ؟

فقال الفراشة العجوز :

— أراكم تعجبون وليس في الأمر ما يدعو إلى العجب ؟
لقد ذكرتم أن الإنسان بين صنوف الحيوان طفل وليد . إنه
ما يزال يعبت في مهده ويلهو ، أفيكون عجيباً من الطفل أن
يتشبث بالأشياء ويمسك بها في قبضته صامحاً : هذا كله لي ،
لي وحدي دون سواي ؟ فاغفروا له هذه النزعة الصبانية حتى
تعلمه الدهور أنه جزء من كلٍ عظيم ...

وهنا ففز البرغوث قفزات لفتت له الأنظار ، وقال :

حدثوني — نشدتكم الله — ماذا حدا بالإنسان أن يتبعج
 فيزعم لنفسه ما زعم ؟
 فأجابت الفراشة المتحمسة :

— أغراه بذلك ما له من علم وأخلاق ؟ وما يدري أنه بعلمه
 يكمل النقص في غريزته وفطرته ، وأن أخلاقه حين تحلم بالمثل
 الأعلى فهي في أحلامها دون ما يسود ممالك النمل والنحل من
 أخلاق ! إن الحيوان لا يعرف العرى والجوع ، وأما الإنسان
 بكل ما له من علم وأخلاق ... آه ! وددت لو خرج هذا الكاتب
 البليغ من لفائفه « الصوفية » فيخوض في برد الليل ساعة فيرى
 بنى جنسه قد ألقاهم البؤس في العراء . حرمتهم الطبيعة الفراء
 اتكالا على علم الإنسان وأخلاقه ، فعجز العلم والأخلاق أن يهيئا
 لهؤلاء الأشقياء وطاء أو غطاء ! وددت لو خرج الكاتب البليغ
 لحظة من « تصوفه » الذي يدفعه بين جدران داره وفوق حشايا
 مخدعه ليرى كم من بطون قومه قد باتت خاوية على الطوى ...
 ولكنه لن يبارح هذا الغشاء « الصوفي » ليرى الحقيقة « عارية »
 حتى يحزّه في رقاده واخر .

فقال البرغوث وهو يشب في جذل طروب :
 — لكم منى هذا الصنيع . والله لأقضن مضجعه هذا .

المساء ، لعل السهاد أن يحفزه على التفكير في هؤلاء الذين ينبتون
القمح حتى يملأ الأهراء ثم لا يأكلون ، والذين يزرعون القطن
حتى تغص به المخازن ثم لا يكتسبون ... والله لأورقنه هذا المساء
لعله يعيد التفكير في هذا الإنسان الذي يقتل بعضه بعضاً بأدوات
من العلم ، ويهلك بعضه بعضاً بنزوات من الأخلاق ...

... قال ذلك البرغوث وانصرف ، وكان الليل قد انتصف ،
فأطفأت سراجي وأويت إلى مخدعي ، وبني إشفاق على صديقي
« خلاف » من هذا البرغوث اللعين !

خلافُ يا صديقي ، لا تسرف ! أفيكون هذا الإنسان الذي
جارت به السبيل وحار الدليل جديراً منك بالإيمان ؟

حكمة اليوم

تتخذ البومة شعاراً للحكمة وبعد النظر ؛ تراها مرسومة على الكتب أحياناً ليدل الناشر على ما تحويه كتبه في بطونها من حكمة خالدة ؛ وتراها مصورة في إعلان تذييعه الحكومة الإنجليزية في بلادها هذه الأيام ، لتحفز شعبها على الادخار ، تمثلاً — فيما ينطوى عليه الادخار من حكمة — بالبومة التي شهد لها الناس منذ الأزل بصدق النظر .

وحدث أنى كنت أقرأ كتاباً منذ أمد قريب ، وكانت البومة على غلافه شعاراً للناشر ، فسألت نفسى : ليت شعرى لماذا اتخذ هذا الطائر المشؤم رمزاً للحكمة ؟ أ يكون ذلك لهاتين العينين المفتوحتين اللتين لا ينسدل عليهما الجفنان في ظلمة المساء ، كما تنسدل الأجفان عند عباد الله من إنس وجان ؟ أ تكون هاتان العينان المفتوحتان قد أغرتا الرامزين أن يتخذوا من دوام الإبصار دليلاً على سداد البصيرة وبعد النظر ؟

أم يكون ذلك لما تعانیه البومة في الليل من سهر ورعاية للنجوم بما فيهما من همٍّ وتسهيد ، حين يكون الخليّون في مخادعهم

نَوْمًا غافلين عن الطبيعة بكل ما فيها أثناء الليل من جلال
وجمال ؟

أم تكون هذه الجلسة الساكنة الهادئة الرزينة الرصينة ،
التي لا تكاد تعرف الحركة ، هي التي أغرت الرامزين أن يشيروا
بها إلى التأمل العميق والتفكير الدقيق ، فأتخذوا البومة شعاراً
لهذا كله ؟

ذلك ما حدثت به نفسى حين نظرت إلى صورة مرسومة
على غلاف الكتاب ؛ لكن فكرة جديدة أوحى بها إلىَّ
فاشرقت علىَّ بالأمس القريب ، إذ كنت أسير في الطريق
مفكراً فيما أنا فيه مما تضطرب له النفس عند أشد الناس ضبطاً
لنفسه وإمساكاً بزمام أعصابه ؛ فقد تعذرت علىَّ متابعة فكرى
لكثرة ما فى الطريق من أصوات ؛ وعندئذ حلّالى — وقد تَعَطَّلَ
الفكر — أن أعدّ هذه الأصوات ، وأخذ فى تبويبها وترتيبها ،
فاذا بى أبلغ فى عدّها المئات !

وبغته قفزتُ قفزة خفيفة لو رآها الناس لقالوا مسّه الجنون ،
وصحت لنفسى — كما فعل أرشميدس فى زمانه — صحت قائلاً :
وجدتها وجدتها ! وجدت العلة فى اتخاذ البومة شعاراً للحكمة
ورمزاً لبعده النظر ؛ العلة هى الصمت ؛ بل وجدت العلة ، لماذا

أقفرت بلادنا وأصابها العقم آلاف السنين ، لا تنجب المصلحين العاملين ؛ العلة هي هذا العجيج والضجيج ، هي هذه الجلبة وهذا الصياح !

أى والله ، لقد صدق من قال إنه إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ؛ وأنا أريد هنا بالكلام والسكوت أوسع ما يفهم من هاتين اللفظتين من معنى ؛ فإذا فهمت من اللفظتين معناهما الواسع ، أدركت ما أريد أن أسوقه إليك حين أنبئك أن الصمت هو السر في حكمة البوم ، وأن الجلبة هي التي أعقت بلادنا عن إنجاب المصلحين العاملين .

فمن باب الصمت أن تختار لجلوسك مكاناً مستوراً تخلو فيه إلى نفسك ، أو إلى من تتحدث إليه من الأصدقاء فيكون لك بهذا التخفي وجود واضح بارز ؛ ومن باب الجلبة والصياح أن تجلس مكشوفاً على طوار الشارع في المقهى ، حيث تصبح جزءاً من بضائع الدكاكين وحركة المرور !

ومن الصمت أن تختار للملابسك وأثاث منزلك ألواناً خافتة هادئة يرتاح إليها البصر ، كما أن من الجلبة والصياح أن تختار هذه الأشياء من ذوات الألوان الصارخة الزاعقة التي تلفت الأنظار رغم الأنوف .

ومن الصمت أن تعلن عن عيادتك إن كنت طبيباً ، أو مكتبك إن كنت محامياً ، أو دكانك إن كنت تاجراً ، بلافتة صغيرة متواضعة ، كما أن من الجلبة والصياح أن تعلن عن نفسك بلافتة طويلة عريضة تسد على الناس مسالك الطريق ، واذكر دائماً أن ارتفاع الصوت قد يدل على تفاهة الصائت ؛ فالكلب الذي ينبج لا يعرض — كما يقول الإنجليز — وكلما ازدادت الشاة صياحا ، قل على ظهرها الصوف — كما يقول الإنجليز كذلك — والضفدعة الهزيلة الضئيلة تملأ الآفاق ضجة ونقيقاً .

يستحيل أن تكون من الصاخبين ومن العاملين في وقت واحد ؛ ويستحيل أن تكون من الصائحين ومن المفكرين في وقت واحد ؛ فقد يتعذر أن يجتمع الكلام والعمل ، لأن الفكرة إذا طافت برأسك فصِحت بها كلاماً ، انتهى بذلك أمرها ، أما إذا حبستها في نفسك ؛ وأغلقت دونها صدرك بمغاليق الصمت ، فقد تنفجر في صورة عمل عاجلا أو آجلا .

كذلك محال أن تضج وتفكر في آن معاً ؛ هلا سألت نفسك يوماً : لماذا اختار اليونان لآلهتهم جبل الأولمب ، ولم يسكنوهم داراً في ساحة السوق ؟ وهل جاءك في الأساطير أن « چوپتر » كان يخلق الكائنات بإيماءة خفيفة دون أن ينطق

إلا قليلا ، أو يتحرك إلا سيرا ؟

هل سألت نفسك يوماً : لماذا يصوم غاندى عن الكلام يوماً فى كل أسبوع ؟ وهل وقفت دقيقة أو دقيقتين كلما قصوا عليك سيرة النبي ، ففسأل : لماذا اختار الله لنبيه الصحراء الصامتة منبتاً ، ولماذا اختار له مغارة معزولة فى سكون الجبل مهبطاً لوحيه ؟

أين يسكن الفيلسوف فيما تظن ؟ أيسكن برجا — سواء كان البرج من عاج أو خشب — أم يسكن غرفة تطل بشرفتها ونوافذها على العتبة الخضراء ؟

ألست تؤثر للعالم الباحث أن يعتزل فى مكان هادئ بين كتبه وأنايبه ، ثم ألست تؤثر للشاعر أن « يجوب وحيداً كالسحابة » — كما يقول « وردزورث » شاعر الإنجليز ؟

أيهما أقرب إلى الشعور الدينى الصحيح فيما تظن : رجل فتح المذيع على آخره ساعة تلاوة القرآن ، فجعل من القراءة ضجة ترج الهواء رجاً ، أم رجل جعل التلاوة همساً فى أذنه لا يكاد يسمعه من يجلس إلى جواره ؟ أتحسب أنه من قبيل المصادفة العمياء أن تواضع الناس فى كل زمان وفى كل مكان وفى جميع الأديان أن تكون بيوت الله — مساجد كانت أو

كنائس أو معابد أو ما شئت لها أن تكون — خافضة الضوء
خافضة الصوت ، إذا أضيئت فبالقنديل الضئيل ، أو ما يشبهه ،
وإذا تكلم فيها متكلم فهمسا ، أو مشى على أرضها ماشٍ فعلى
أطراف أصابعه ؟ ثم هل يخلو من المعنى أن يوعد المؤمنون جنة
لا يسمعون فيها لغواً ؟

أنت أقرب إلى الله في صمتك منك في صخبك وضجتك ،
ولهذا اختار المتعبدون صوامع في الجبل ، ولم يختاروا الميادين الفخمة
في كبريات المدن !

خذها غنى نصيحة ناصح : ضع ثقتك فيمن يتلعم إذا
تكلم ، أضعاف أضعاف ما تضعها فيمن يكثر من الجدل والنقاش ؛
فالأرجح أن ينتج الأول عملاً ينفعك وينفعه ، والأرجح ألا
ينتج الثاني شيئاً ذا غناء ؛ ولعل « فورد » — صاحب الثراء
الضخم وصاحب السيارة المعروفة — لعله لم يكن محسناً فقط
حين جعل من مبادئه أن يبدأ في مصانعه باستخدام الأبيكم ،
بل لعله كان في ذلك رجلاً من رجال الأعمال الذين حالفهم
صواب الرأي ؛ فمع البكم إنتاج وعمل ، ومع الثروة مضیعة للوقت
والمجهود ؛ ورحم الله مالكا حين قال : « لا أحب الكلام إلا

فما تحته عمل » ؛ ورحم الله ابن حنبل حين قال : « لا يفلح صاحب كلام أبدا » .

هل تدري ما معنى « تفكير » ؟ معناه الدقيق مناقشة الإنسان لنفسه ، يلتقى على نفسه سؤالاً ويحاول عنه الجواب ؛ فإذا قلت « إني أفكر » كان معنى ذلك على وجه الدقة أنى سألت نفسى سؤالاً أو أسئلة أحاول عنها الجواب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا خلوت لنفسك وساد حولك الصمت .

وإنه لمن أعجب العجب أن يشاء الله لأعظم موسيقى أنجبته الدنيا — أعنى بيهوثن — أن يصاب بالصمم ، فلا يسمع حتى موسيقاه ! ترى هل ساعده العالم الصامت الذى عاش فيه على خلق تغريده وألحانه ؟

دارت فى رأسى هذه الخواطر ، ثم أراد الله أن يزيدنى بأساً على يأس ، فذكرنى بالمكتب والبيت والشارع ... دخلت مكتباً فى ديوان حكومى لأقضى بعض شأنى ، فوجدته يموج بالزائرين الصائحين الصاخبين ، فقلت : يستحيل أن ينتج هذا المكان شيئاً .

ودخلت دارى فوجدتها مفتحة النوافذ ساطعة الضوء كثيرة الصياح ، فقلت : يستحيل أن تكون هذه الدار بيئة

صالحة لتكوين رجل صامت عامل .

ومشيت في الشارع فسمعت عجيجاً وضجيجاً وجلبة وصياحاً ،
فقلت : يستحيل أن يكون هذا مكاناً من بلد يعرف أهله العمل
والإنتاج .

اللهم رحماك ! والله لو انفتحت لى أبواب السماء (ليلة القدر) ،
ما تمنيت لأمتي إلا شيئاً واحداً : أن يهبها الله شيئاً من
حكمة اليوم .

قارىء الافكار

كنت أساكن صديقاً بضاحية الزيتون فى دار صغيرة جميلة ذات طابقين ، وكان هذا الصديق يشاركنى ألوان الثقافة والتفكير ومنازع الحياة والسلوك ؛ اللهم إلا جانباً واحداً بارزاً اختلفت معه فيه ، فقد كان يؤمن بما للنفس من قُوَى : يؤمن بإحضار أرواح الموتى ، وبانتقال الخواج النفسية بين الأحياء دون تفاهم واتصال ؛ كان يؤمن بهذا وبغيره من قوى النفس المزعومة الموهومة ؛ وكنت لأؤمن بشيء من هذا قلّ أو كثر . ولم يكفِ هذا الصديق أن يأخذ بالرأى فى صمت وهدوء ، بل تحمس له حماسة يمازجها شيء من الصخب ، وساهم فى جمعية نفسية تألفت فى القاهرة من بعض المشتغلين بهذه الأبحاث ، ولم تكن لجماعتهم هذه دار يلتقون فيها ، فاتفق الأعضاء على أن تكون الجلسات فى ديارهم .

وفى يوم برّده زمهرير ، دبرّ صديقى اجتماعاً فى دارنا ، وكان محتوماً على أن أساهم فى الحفاوة بالزائرين ، أو أغادر الدار . وقد آثرتُ أن أخوضَ فى برّد الشتاء ، على أن أستمع مرغماً إلى ما يديره أولئك الأعضاء من هراء ؛ ولكن شاء حظى المنكود

أن يفاجأ صديقي بما ألزمه بالسفر في تلك الليلة إلزاماً لا سبيل إلى الفرار منه ، فماذا يصنع والاجتماع بعد ساعتين أو أقصر ؟ أمامه مَخْرَجٌ واحد ، وذلك أن أَظْلَّ بالدار لأستقبل الأضياف .

وَحَدَّثْتُ مَا شِئْتُ عما أصاب نفسي من حَرَجٍ وضيق ، ولكنني جحدت هذا الغم في كبدي ، ورسمتُ ابتسامة على حياي لألقى بها الزائرين .. وحن الحين ، وأقبل المقبلون ، فأخذت أصافح وأسامر في بَشْرٍ وترحاب ، كأني كنت لهذا اللقاء في لوعة المشتاق ، وما هو إلا أن فرغنا من العشاء ، فانتقل الزائرون إلى غرفة المكتبة ، وكنا قد أعددناها للجلوس ؛ وهنا أقبل صديقي حسن ، وهو يفهم موقفي من هذه الأبحاث النفسية ، ويشاركني وجهة النظر ، وجلس بعد أن صافح الحاضرين ... ولم تمض دقيقتان حتى سادنا الصمت ، ووقف رئيس الجماعة ، وسعل سعل خفيفة ، تمهيداً للكلمة يلقيها في الحضور ، ثم قال : « سادتي ! إنا لنأسف أسفاً شديداً لغياب زميلنا يوسف هذا المساء ، ولكن أهى العناية الإلهية دبرت هذا لأكشف لكم في صديقه وصديقنا محمود عن عضو جديد وعَضِدٍ قوِيٍّ مستنير ؟! لقد رأيتم جميعاً كيف استقبلنا بحفاوة الأكرمين ، ولكنني رأيت فيه جانباً آخر ، فقد أخذ يحدثني ونحن جلوس إلى مائدة

الطعام حديث المتعمق ، الخبير بالنفس البشرية وسرها المكنون ،
 فعجبت لأمره أشد العجب ، فقد ذكره لى صديقه وصديقنا
 يوسف فى غضون حديث له معى منذ أيام ، فأنبأنى عنه أنه واسع
 الثقافة كثير المطالعة ، وأنه كان يصلح لجماعتنا هذه عضواً مفيداً ،
 لولا أنه ينفر نفوراً شديداً من أبحاثنا الروحية ، ولا يصفها بأكثر
 مما يوصف به خلط المجانين ... »

فقاطعته قائلاً : ليس هذا حقاً ياميدى ، لقد ساء فهمه إياى
 أو أساء الافهام ، لأنى مشغوف بالروح وما يتصل بها من بحوث .
 إن أصدقائى جميعاً يعلمون عنى أنى أعيش فى كتب الأقدمين
 أكثر مما أعيش بين الأحياء المعاصرين ؛ وأشباه هذه البحوث
 الروحية كثيرة فى تلك الكتب ، بل جاءت عصور بأسرها
 لا تعرف من العلم إلا أشباه هذه البحوث ؛ وليس من المعقول أن
 أخرج من هذا المحصول الضخم صفر اليدين . ولم أقف من الأمر
 عند المعرفة النظرية ، بل طبقتها مرتين حين كنت فى مراكز
 الريف فأفلحت إفلاحاً عجيماً ؛ ولو شئتم عرضت أمامكم بعض
 هذه التجارب التى أجريتها فى قدرة النفس البشرية على نقل
 الخواطر من ذهن إلى ذهن بغير ما يعهد الناس من وسائل
 التعبير ...

فخدق صديقي حسن نظراته في وجهي، ولحت فيه ميلاً إلى الضحك، عرفته فيه منذ ائتلف قلبانا في هذه الصداقة القوية؛ ولكنه حين رآني أسترسل جاداً في الحديث، أخذ يعلوه العجب، وتبدو في عينه الدهشة مما أقول، كأنه أراد أن يهمس: أنت مازح أم هذا جانب منك خدعتني فيه؟!

ولكني لم آبه لما يختلج في نفس صديقي حسن آئذ، ودرت ببصري في أعضاء الجماعة النفسية قائلاً: هل تؤمنون بقدرة الروح على نقل الخواطر من شخص إلى شخص على بعد ما بينهما من شقة؟ فأجاب الرئيس: «إنك يا سيدي كمن يسأل بائع الفاكهة هل يبيع فاكهة! إن نقل الأفكار والخواطر في مقدمة البحوث التي تعنى بها جماعتنا، بل إنه علة ائتلافها وسبب وجودها... نحن معيرونك آذاناً مرهفة مصغية، فحدثنا في هذا الأمر ما شئت من حديث، وأجر ما شئت من تجارب، فما أحسب إلا أن الجمعية قد كسبتك عضواً قديراً خطيراً.

قلت: إذا فاسمعوا. سأخرج من الغرفة الآن، فاخترأوا من هذه الأشياء التي حولكم شيئاً، ثم شبكوا أيديكم بحيث يمسك كلٌ بجاره، وركزوا أذهانكم جميعاً في الشيء المختار، على أن يشير أولكم بيده المطلقة إلى ذلك الشيء. أما أنا فأسأعده

إلى الغرفة العليا ، ثم أغلق من دوني الباب ، وأنقر بعصاي على الأرض نقرات متصلة ، فإذا ما أخذت في هذا النقر بالعصا ، اجلسوا وشبكوا أيديكم على النحو الذي أسلفت ، وركزوا تفكيركم فيما تختارون ؛ وسأخبط أرض الغرفة بعصاي خبطتين غليظتين لتعودوا إلى حيث كنتم ، قبل أن أهبط إليكم ؛ فلو استطعتم أن تركزوا عقولكم في الشيء المختار ، فلن أجد عسراً في قراءة ما تفكرون فيه على صفحات أذهانكم ، كأنتي أقرأ في كتاب منشور .

فقال الرئيس : إن حدث هذا كان مثلاً ناصعاً ، وبرهاناً قاطعاً على قوة النفس البشرية في قراءة الأفكار . ابدأ بتجربتك يا محمود ، فنحن منفذون لك ما تريد . وأما صديقي حسن فلم يزد إلا دهشة وعجباً ، أهذا هو صديقي الذي خالطته أعواماً ، فلم أشهد منه إلا ضحكاً وسخرية من سخف العقول التي تأخذ بهذه الآراء ؟ !

أخذت عصاي واتجهت صوب الباب ، وقد أوصيتهم قبل أن أغيب عن أنظارهم ، أن يركزوا أفكارهم في الشيء المختار تركيزاً شديداً ، وخرجت إلى البهو وصعدت السلم ، وفتحت باب الغرفة العليا في صوت مسموع ، ثم أقفلته في عنف ليعلموا أني

قد بلغت مكاني فيأخذوا فيما أوصيتهم به ... هنا وقف الرئيس وأقبل باب المكتبة ليزدادوا استحكاماً ، وشبكوا أيديهم ، وكنت قد بدأت أنقر بعصاي نقرأ خفيفاً على أرض الغرفة العليا . وقد مد الرئيس يده المطلقة — وكان هو الذي وقف في نهاية السلسلة — ووضع إصبعه على مصباح المكتب ، فهز الباقون رؤوسهم بالموافقة ، وأخذوا جميعاً يركزون عقولهم في هذا المصباح ، وقد ساد بينهم صمت عميق تكاد تسمع فيه تردد الأنفاس ؛ فكان صوت عصاي وهي تنقر على أرض الغرفة العليا يدوي في أرجاء المكان ، ثم وقفت نقرات العصا لحظة قصيرة ، ثم خبطت بها خبطتين غليظتين إيذاناً بالنهاية . ففك الأعضاء أيديهم وعادوا إلى أماكنهم الأولى ، وفتح الرئيس باب المكتبة ، فهبطت السلم وأقبلت على الجالسين كأنني أعنت الذهن إعناتاً مرهقاً ، وقلت : لا تنظروا إلى الشيء المختار ، بل فكروا فيه لتنتقل الفكرة من عقولكم إلى عقلي ... فلبثوا جالسين في صمت رزين يزيغون الأبصار هنا وهناك ، وطفقت أعبّر الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم خطوط خطواً فسيحاً سريعاً مفاجئاً نحو المكتب ، ورفعت المصباح وأنا أتهلل بالبشر ، وقلت : هذا ما اخترتموه ، لقد قرأت الفكرة في عقولكم جلية واضحة ، كأنني أقرأ في كتاب منشور !!

فضج المكان بعد ذلك الصمت الرهيب ، وقال الرئيس في صوت المتحمس : ألا فليُنظر إلى هذه التجربة الرائعة كل كافر بالنفس البشرية وقواها ! فلنُسجل هذا في دفاترنا برهاناً قاطعاً على إمكان قراءة الأفكار ، ننشره في الناس يوم ننشر خلاصة ما نقوم به من الأبحاث .

قللت وقد أحسست بنفسى التيه والإعجاب : لو شئتم أجريتُ لكم تجربة أخرى ، ولكم أن تزيدوا الأمر دقة وصعوبة ... وأخذتُ العصا وصعدت السلم وبدأت أنقر على أرض الغرفة العليا نقرأ خفياً ... قال الرئيس لزملائه : « سنختار هذه المرة شيئاً دقيقاً بحيث لو عرفه لم يعد محل لريب مرتاب ، سأختار كتاباً من أحد هذه الرفوف ، وسأفتحه كما اتفق ، وستكون الصفحة المفتوحة هي ما نركز فيه الفكر » ؛ فوافق الزملاء وشبكوا أيديهم ، وخطا الرئيس إلى أحد الرفوف وانتزع كتاباً وضعه على المكتب ، ثم دسَّ سبافته بين صفحاته وفتح ، فإذا هي صفحة ١٧٦ ، فأشار إليها بيسراه ، وشبك يمينه في يد جاره ووقف الجميع في صمت يفكرون في الشيء المختار ، ونقرات العصا متصلة على أرض الغرفة العليا ، ثم وقف النقر لحظة قصيرة ، ثم ضربت الأرض بالعصا ضربتين غليظتين إيذاناً بالنهاية .

فَفُكَّت الأيدي وأعيد الكتاب حيث كان ، واتخذ كل من في
 الغرفة مجلسه ، وهبطت السلم ودخلت حجرة المكتب ، فألقيت
 الجميع في سكون رصين رزين لا تسمع فيه نامة ولا حركة . وقد
 أخذت أذرع الغرفة بخطاى كأننى أفكر ؛ وما هى إلا أن وقفت
 بغتة وقلت فى لهجة حادة : « إن بينكم رجالاً لا يركز تفكيره فى
 الشئ المختار تركيزاً شديداً » . ونظرتُ إلى صديقى حسن ،
 فرشقه أعضاء الجماعة النفسية بنظرات ملؤها اللوم والتأنيب ، وبدا
 على وجه حسن من العلام ما يدل على أنه كان بالفعل شارد
 الفكر ، ولكنه أحس أنه فى قوم جادين فيما هم فيه ، لا يلهون
 ولا يعبثون ، فحصر ذهنه فى الصفحة المختارة حصراً قوياً . وساد
 الصمت ، ووقفتُ أجيل البصر فى أرجاء الغرفة ، أصعده وأصوبه ،
 ثم خطوت خطأً سريعاً مبالغاً إلى رف بين رفوف الكتب ،
 وأنزلت منه كتاباً وضعته على المكتب وفتحته فى صفحة ١٧٣ ،
 ونظرتُ إلى الرئيس قائلاً : ألم يقع اختياركم على هذه الصفحة ؟ ..
 فاندفع الجالسون إلى المكتب يشربون بأعناقهم إلى الكتاب ،
 وقد فغروا أفواههم عجباً وإعجاباً . فسألتهم : هل أصبتُ هذه
 المرة أيضاً ؟

قال الرئيس : لقد قاربت الصواب قريباً شديداً . لقد

اخترنا صفحة ١٧٦ ، فلم تخطيُ إلا قليلا حين حسبتها صفحة ١٧٣ .
إن في المكتبة مئات من الكتب فيها ألوف الألوف من الصفحات ،
فياله من نصر عظيم حين تخطيُ في صفحات ثلاث ! أستغفر الله
ماذا أقول ؟ أقول إنك أخطأت مع أن هذا الخطأ اليسير هو
بعينه دليل الصواب ؟ ألم يشرّد صاحبنا — وأشار إلى حسن —
بفكره لحظة هي كفيّلة أن تسبب هذا الانحراف القليل ؟ !

فقلت : نعم ، سيدي الرئيس ، لم أكّد أدخل الغرفة ، حتى
أحسست إحساساً عجباً ، أحسست كأنّ جاذباً يجذب فكري
عن غاية يقصد إليها ، أحسست كأنّ عاملاً يحول بيني وبين
ما أريد ، فأدركت من فوري أن أحد الحضور قد شرّد بفكره
عن الشيء المختار .

قال الرئيس : هذه تجربة نادرة ! هذا مثال عجيب لقراءة
الأفكار ! هذه حالة تنهض دليلاً قوياً على أن تركيز الفكر في
شيء سبب في انتقال الفكرة إلى شخص آخر ، وشروده حائل
يحول دون هذا الانتقال . إن زلة صديقنا هذا قد جاءت مؤكدة
للتجربة مؤيدة لها ؛ فلو لا هذه الغفوة منه ما عرفنا كيف تكون
الحال إذا ما حيل دون تركيز الفكر . ماذا تقول ؟ أتقول إنك
أحسست كأنّ شيئاً يقف في طريقك ويصرفك عن غايتك ؟

قلت : نعم ، سيدى الرئيس ، شعرت بذلك شعوراً قوياً ،
فقد رأيت نفسى بادية الأمر منجذبة نحو الكتاب حين دخلت
الغرفة ، ولكنى أحسست فجأة أن الفكرة الواضحة فى نفسى قد
غشاها غموض واضطراب ؛ ولما عاد صديقى حسن إلى تركيز
فكره رأيت فكرة الكتاب تزداد فى ذهنى وضوحاً شيئاً فشيئاً ،
وشعرت كأنما يدفعنى إليه دافع ليس إلى مقاومته من سبيل ...

فدار الحديث بين الأعضاء ساعة حول هذه القدرة العجيبة
للنفس الإنسانية على استطلاع ما يختلج فى نفوس الآخرين من
خلجات وأفكار ؛ ولما آن موعد انصرافهم صاحبنى مهنيين
معجبين ، وخرجوا إلا حسناً ، فقد بقى ليقضى معى شطراً أطول
من الليل ؛ فما كدنا نعود إلى مجلسينا حتى نظر إلى حسن فى
دهشة ، وقال : ما ظننتك يا محمود مشغولاً بالبحوث النفسية قبل
الليلة ، فلطالما زعمت لى عن نفسك أنك منطقى جاف صارم فى
منطقك ، ولطالما أنكرت لى ما يذيع فى مجالس الناس من أنباء
عن قوى النفس وأسرارها ، لأنها كانت لا تتفق فى رأيك مع
المنطق العقلى المستقيم .

فقلت : ماذا ؟ أترأى قد انخدعت يا حسن كهؤلاء

الجهانين ؟

قال : ما أرى في الأمر خداعاً . لقد تحوّلنا للأمر تحوطاً
شديداً ، ومع ذلك فقد أبدت قدرة عجيبة على استطلاع خلجات
العقول !

فقلت : إذاً لقد وُفِّت في خداعكم أكثر مما توقعت لنفسى ؛
إن الأمر كله خداع في خداع ، كنت أصعد السلم وأبدأ في النقر
الخفيف بعصاى ، ثم أمر الخادم أن يواصل هذا النقر حتى أخف
مسرّعاً من السلم الخلفى لأنظر إليكم من ثغرة ضئيلة في النافذة
المطلّة على الحديقة ، حتى أشهد ما تفعلون ، فأعود سريعاً إلى
الغرفة العليا وأخذ عصاى من الخادم فأخبط بها خبطتين غليظتين
ثم أهبط إليكم عالماً بكل أمركم .

قال : لئن كان هذا الخداع الساذج مما يجوز على هؤلاء
المثقفين ، أف يكون عجيباً بعد هذا أن نتخدع عامة الناس ؟

النساء قوامات

إذا عشتَ في أمة هازلة حملك الناس محل الهزل إن كنت جادا ، وأخذوك مأخذ الجد إن كنت مازحا ، حتى لا تدري إن أردت معهم الجد ولم تسعفك روح الفكاهة ، كيف تتوجه إليهم بالخطاب ؛ ولست أرى لك حيلة سوى أن تقسم لهم في مستهل الحديث بالذي بسط لهم الأرض ورفع السماء ، أنك فيما تحدثهم به إنما قصدت إلى الجد ولم تقصد إلى المزاح .

والذي أتقدم به الآن بين يديك أيها القارئ الكريم أتقدم به في استحياء وخجل لما أحسه فيه من نبو وشدوذ وخروج على مألوف الرأي والعادة ، ملتصبا منك الغفران إن كنت على ضلال ، وراجيا منك التأييد والتعضيد والفعل والتنفيذ إذا رأيته قد وفقت إلى صواب ، الذي أتقدم به الآن بين يديك جادا كل الجد مؤمنا كل الإيمان ، رأى في الإصلاح لست أرى للإصلاح سبيلا سواه ، بعد تفكير أدرته في رأسي أعواما طوالا ؛ وقد هداني إليه حادث عابر — وكم في تاريخ الإنسان من كشف عظيم هدى إليه حادث عابر — والرأى في بساطة واختصار هو أن نلتقي بزمام أمرنا في أيدي نسائنا حيناً من الدهر ، فنجعل

النساء قوامات على الرجال قرنا كاملا ، لعلهن فى نصفه الأول
مستطيعات أن يصلحن ما أفسدت أيدي الرجال مدى خمسين
قرنا ، وأن يضعن فى نصفه الثانى أساساً جديداً لحياة جديدة ؛
وللرجال بعد ذلك أن يستردوا قوامتهم على النساء ، إن وجدوا
أن ذلك عندئذ فى حدود المستطاع . أريد أن تكون الكلمة
العليا فى الأسرة للمرأة لا للرجل ، بحيث يفاخر المرء أقرانه بأنه قد
تعهدته أمه لا أبوه ؛ أريد أن أرى فى مناصب الدولة جميعا —
رفيعها ووضيعها على السواء — نساء لا رجالا ، فيكون منهن
الوزيرات والمديرات والمأمورات والضباط والشرطيات والقاضيات
ونائبات البرلمان ، وأن يحرم الرجال حق الانتخاب على النحو
الذى حرّمته المرأة اليوم ؛ أريد أن يكون رأى المرأة فى كل
شئ قرنا كاملا من الزمان .

أوحى إلى بهذه الفكرة حديث قصير مع فتى وفتاة ، كلاهما
تخرج فى الجامعة ؛ فوجدت فى الفتى خفة ورعونة وتفاهة رأى ،
بقدر ما وجدت فى الفتاة تماسكا واتزاناً وسداداً ؛ فلم يسعنى إذ
كنت أجالسهما وأستمع إلى الحوار بينهما سوى أن أسائل نفسى
متعجباً : أليكون هذا الفتى قواماً على هذه الفتاة لو تزوج منها ؟!
ألا يكون لهذه الفتاة الرزينة الرصينة المتزنة العاقلة رأى فى سياسة

بلدها ، وأن يطلب الرأى من مثل هذا الفتى — أستغفر الله ، بل لا يكون لهذه الفتاة رأى فى سياسة بلدها ويطلب الرأى من « عبد الله الطبال » ، وهو رجل ذو بلاهة كان يبيع فى حارتنا الطعمية منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكان لنا موضع العبث والهزل والفسكاهة ونحن أطفال .

عدت إلى دارى بعد هذا الحادث العابر ، أسائل نفسى فى الطريق متعجبا مرة أخرى : أ يكون هذا التفاوت الفسيح الذى شهدته بين الفتاة والفتى شذوذا يحدث مرة ويتخلف مائة مرة ، أم يكون هو القاعدة السارية الجارية التى تقع مائة مرة وتتخلف مرة ؟ وما كدت أبلغ دارى وأستقر إلى مكنتى حتى أخذت الأمر مأخذ الجد والعلم الصحيح ؛ فمن العبث أن نعيش فى عصر يفوح هواؤه بالعلم والعلماء ، وتدار أداته فى الأنايب والمعامل ، ثم نقف حيال ذلك كله ، موقف المتحدى ، فنطرح وراء ظهورنا وسائل العلم وأساليب العلماء ؛ وأبسط هذه الوسائل والأساليب أن نبني أحكامنا على حقائق محسوسة ملموسة ، وألا نقيمها على خيال واهم أو رأى عابر ؛ ينبغى لك إن أردت اليقين أن تبسط الحقائق أمام نظرك أولا ، لتتهدى بهديها ، وتنزع منها الحكم الصحيح ، والحقائق التى لا بد لك أن تبسطها فى هذا البحث

الذى نحن الآن بصددده ليست حشرات ولا غازات ولا صخوراً ولا معادن ؛ الحقائق المطلوبة هاهنا أساساً للبحث عدد من النساء وعدد من الرجال ، تجمعهم بالذاكرة فى رأسك ولا تدعوهم للاحتشاد فى ردهة دارك ، واجعل العدد أكبر عدد ممكن ، ثم قارن بينهما اثنين اثنين ، بحيث تقرن الرجل إلى من يساويه من النساء سناً وتعليماً وظروفاً ، ثم انظر أى الجنسين كان أسلم نظراً وأسد رأياً فى مواقف بذاتها مرت بك وكونت جزءاً من تجاربك .

هذا ما صنعته أنا ، استعدت بالذاكرة عشرات المواقف التى تعارض فيها رجل وامرأة ممن تقاربت ظروفهم ، فوجدت فى كل زوج اخترته للبحث ، أنه حيثما اختلف الاثنان فى وجهة النظر ، كان الرجحان حليف المرأة فى تسع مرات من كل عشر ؛ وإني أيها القارئ لأناشدك الذمة والضمير والإخلاص ، إني لأستحلفك الله والوطن الذى نريد معاً أن نصلحه ، أن تخلو لنفسك ساعة واحدة فتعرض لمن تعرف من ذكور وإناث ، هادئ النفس خالص النية مبرأ من الهوى ؛ اعرض لمن تعرف من أزواج وزوجات ، وبنين وبنات ، وإخوة وأخوات ، وطلاب وطالبات ، وموظفين وموظفات ؛ اعرض هؤلاء أزواجاً وأزواجاً ، وكن أميناً فى عرضك ، فلا تقرن الجاهلة إلى المتعلم ، ولا الصغيرة إلى الكبير ،

لا توازن بين قروية ومتحضر ، بل اختر أمثلك ممن تشابهت
حالهم وتقارب محيطهم ، ثم نبثني بعد ذلك أى الجنسين وجدته
أسلم تفكيراً وأنفذ بصيرة ؟ أما أنا فلم يعد عندى فى الأمر موضع
لريب . لقد آمنت إيماناً أرسخ من شم الجبال ، بأن المرأة فى مصر
أحكم رأياً من الرجل فى مصر ، وأنه ينبغى لذلك أن يكون لها
الأمر والسلطان ولو إلى حين .

لهلك لحظت أنى أحدد القول بالرجل فى مصر والمرأة فى
مصر ولا أطلق الحكم إطلاقاً ؛ وأرانى هاهنا مضطراً إلى تنبيهك
إلى خطأ يقع فيه كثيرون وأعيدك أن تقع فيه إذا ما أخذت فى
البحث ؛ والخطأ أن تبدأ بقول عام تلقيه على عواهنه وتتشبث به ؛
هذا لا يجمل بك أن تصنعه مهما يكن قائل هذا الرأى ومهما تكن
منزلته من نفسك ونفوس الناس ؛ فاجعل بداية بحثك أمثلة فردية
جزئية واقعة ، واترك نفسك على الحياد ، وانظر إلام تؤدى بك
هذه الأمثلة المختارة ؛ أنا أشير عليك بهذا بعد خبرة طويلة ؛ فكم
من مرة ثار فيها هذا الجدل : أيهما أقدر على تصريف الأمور ،
الرجل أم المرأة ؟ وكم من مرة كلما ثار الجدل أخذتنى الغيرة على
الرجولة والرجال ، وخشيت أن يكتسح سلطانهم وتضيع حقوقهم ،
فكنت أحتج لارجل على المرأة بكثرة النابغين وقلة النابغات

وما إلى ذلك من جدل نظرى عقيم ؛ لكنى الآن أوتر طريقة أخرى فى التفكير منتجة مفيدة ، وهى أن أخصص ولا أعم إلا بعد تخصيص ، أوتر الآن أن أختبر الموقف الفرد وألا أرف بجناحين عريضين فى أطباق الهواء مسرعا لأنتهى إلى تعميم فى الحكم بين طرفة عين وانتباهتها ؛ فليس ذا غناء أن أوازن بين المرأة والرجل ، كائنة من كانت المرأة ، وكائناً من كان الرجل ؛ بل لا بد لى أن أحصر موضوع البحث وأضيق حدوده ، فأبدأ بهذه المرأة وهذا الرجل ، وبهذه المرأة الأخرى وهذا الرجل الآخر ، وبهذه المرأة الثالثة وهذا الرجل الثالث ؛ ثم أنتقل بعد ذلك إلى المرأة فى مصر والرجل فى مصر ، إن وجدت أن الأفراد الذين أخضعتهم للبحث يبررون مثل هذا التعميم ؛ وليس من حقى أن أقول عن المرأة فى أنحاء العالم ما أقوله عن المرأة فى مصر ، ولا عن الرجل فى أنحاء العالم ما أقوله عن الرجل فى مصر ، إذ قد يكون فى مصر من الظروف الخاصة التى لا تشاركها فيها سائر الأقطار ، والتى قد يكون من شأنها أن تكون المرأة فى مصر أسلم نظراً من الرجل وأسد رأياً ؛ والواقع أن هذا هو ما انتهيت إليه وما آمنت به وما أزعمه لك وما أرجو لك أن تأخذ به بعد بحث وتحقيق .

وإذا اتفقنا على صواب الرأي بقى علينا أن نعلله ، وقد فتح على الله بتعليين أذكرها لك وأرجو منك المزيد .

التعليل الأول هو أن الذكر في مصر مدلل لذكورته والأنثى مهيضة الجناح لأنوثتها ؛ قد تكون هذه ظاهرة طبيعية في العالم كله وفي عصور التاريخ كلها ، لكنى لا أكاد أراها في بلد من بلاد الأرض قد بلغت ما بلغته في مصر ، وتكاد الآية الكريمة : « وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت » تتجه بالسؤال إلى المصريين اليوم كما اتجهت به إلى جاهلية القرون الغابرة ، فلست أرى كبير فرق بين وأدهن بالجسم ووأدهن بالروح ...

هذا الولد المدلل يشعر منذ اللحظة الأولى لحياته الواعية أن فعله مقبول وقوله مستطاب ، فماذا عليه لو فعل الفضائح وقال الهراء ؟ إنه « ولد » وإنه مدلل وإن مكائته في القلوب عالية رفيعة ؛ إن تجهم له الوالد لفعله فهو يعلم في يقين أن الوالد هازل في تجهمه ، وإن انتهرته الوالدة لقوله ، فهو كذلك يعلم أنها مازحة في انتهارها ؛ وتأتى بعدئذ مرحلة قريبة جداً من هذا ، الانزلاق إليها سهل ممهد يسير ، وهي أن يستبد هذا الولد ويطنغى ، لن يعود طلبه رجاء ، بل أمراً يجب أن يطاع ، ولن تعود الحدود الضابطة لفعله وقوله هي ماله من حق وما غيره من حقوق ، بل يصبح الأمر كله رغبة يريد

إشباعها بأسرع الطرق ، فلماذا يتأني دقيقة أو دقيقتين ليفكر هل
أسرع الطرق لإشباع رغبته مشروع أو غير مشروع ، فيه
الإنصاف لغيره أو فيه الإجحاف عليهم ؟ .

خذ هذا الولد المدلل الذي استقبد في بيته ، وضع على شفقه
العليا شاربا ، يكن لك الرجل المصرى فى شتى وجوه الحياة ؛ هو
لا يعنيه قلامة ظفر أن يعمل بحيث لا يجاوز حدود الحكمة والعدل
والإنصاف ؛ إنه رجل لا يعرف إلا أن يسلك لغايته أقصر
السبل ، ولتكن السبل المختارة ما تكون ؛ ومن هنا كان الطغيان
الضارب بأطنابه وكان الفساد ، ولن أعذر للقارىء عن كثرة
ما قلته وما سأقوله ما استطعت أن أحمل القلم ، عن الطغيان والطفاة ،
فذلك عندى ذنب الأفعى ورأسها .

وعلى نقيض ذلك ما نشأت عليه الفتاة ، فقد أدركت منذ
اللحظة الأولى لحياتها الواعية أنها « بذت » وأنها بالقياس إلى
شقيقتها الذكر لا تساوى شروى فقير ، وإذا فلا بد لها من إقامة
الدليل على أنها إنسان — ولا تقل إن هذه بديهية لا تحتاج إلى
برهان ، فأنت فى كثير جداً من الأحيان مضطر إلى البرهنة على
أنك إنسان كغيرك من بنى الإنسان — أى والله ، أدركت
البنيت منذ اللحظة الأولى لحياتها الواعية ألا مندوحة لها عن إقامة

الدليل على أنها إنسان كاخوتها الذكور ، وإذا فلتفكر مرتين قبل أن تنطق ، حتى لا يقال : أأنثى وتنطق بالهراء ؟ أحشفا وسوء كيلة ؟ ولتتدبر الأمر مرتين قبل أن تعمل ، فيكفيها من مصائب الزمن أنها أنثى ! وهكذا ينشأ لك من هذه الفتاة إنسان أقرب ما يكون إلى الحاكم الذى يضبطه برلمان يحاسبه على ما يقول ويفعل ؛ فلئن كانت ظروف الأسرة المصرية قد خلقت من الولد طاغية مستبدا ، فقد خلقت هذه الظروف نفسها من البنت إنسانا عاقلا متزنا صائب الرأى سديد النظر .

وتعليل آخر لتفوق المصرية على المصرى : أن المرأة أقرب إلى الحكم بغريزتها من الرجل ، والرجل أقرب إلى الحكم بمنطق العقل من المرأة ؛ فلو عاش رجل وامرأة فى ظروف سوّية تهذب الغريزة والعقل المنطقى معاً ، لكان من العسير أن تحكم لأحدهما على الآخر ، إلا أن تغوص فى بحث فلسفى عويص فى أيهما آمن دليلاً : الغريزة أم منطق العقل ؟ أما وظروف الحياة فى مصر ليست مما يعين العقل على التفكير بمنطق سليم ، إذ توشك ألا تجد فيها شيئاً تبنى فيه النتائج الصحيحة على مقدمات صحيحة ، أما وظروف الحياة المصرية تفعل هذا الصنيع فى منطق الرجل ، ولا تفسد شيئاً من غريزة المرأة ، لأن الغريزة أرسخ فى النفس

آساساً وأعمق جذوراً من أن تنال منها الزعازع ، فهذه الغريزة عند المرأة لم يعد يقابلها شيء عند الرجل ؛ أمامك في كفة الميزان غريزة فطرية وفي الكفة الأخرى عقل مختل فاسد ، فقل بعد ذلك ما شئت في صدق الغريزة دائماً أو خطئها أحياناً ، فهي على كل حال شيء يقابله لا شيء — أستغفر الحق ، بل يقابله ما هو شر من لا شيء لأن الفساد خير منه العدم .

أعود أيها القارئ فأستحلفك الذمة والضمير والإخلاص للوطن ، أن تتدبر الأمر في روية وهدوء ؛ فإن رأيت صواباً ما زعمته لك ، فاستجمع قواك وتوكل على الله ، وانزل عن سلطانك لمن هي أحق منك بالسلطان .

أعذب الشعر أصدق

زعم ناقد عربي قديم أن أعذب الشعر أكذبه . ومواء
كان هذا الناقد جاداً في زعمه أو هازلاً ، فقد جرت عبارته مجرى
القول الصادق الجميل ، وكان لها أثر عميق في توجيه الشعراء ، وفي
تكوين الذوق الفني عند القراء . فماذا يريد « بالكذب » في
الشعر ؟ هل كان من السذاجة بحيث أغراه السجع ، فصرفه عن
دقة الحكم وصدق الرأي ، وآثر أن يتمتع سمعه بإيقاع اللفظتين
« أعذب » و « أكذب » فأرسل العبارة لاهياً عابثاً ؟ ربما
كان الأمر كذلك ، لأن العناية بالألفاظ كثيراً ما تطغى على
دقة التفكير .

أو لعله أبصر من ذلك وأعمق ، وأراد بعبارته الموجزة أن
يقرر أن العيش مرٌّ أليم ، وأن خيال الشاعر كفيلاً أن يخلق عالماً
جديداً حلواً مستساغاً ، يلوذ به فراراً من دنيا الحقيقة والواقع ؛
فهو كلما اشتد بعداً عن الواقع فيما يصور ، كان أكثر توفيقاً في
تحقيق الغرض الذي يقصد إليه .

وخير الفروض إنصافاً له واعترافاً بعمق نظره ، أن نفسر

إيثاره للكذب في الشعر بأنه إيثار « للذاتي » دون « الموضوعي »
في عالم الفنون ؛ فنحن إذا حللنا حمرة الشفق مثلاً ، كان معناها
إحساس العين باللون حين يتجه الرائي ببصره نحو السماء ،
فليست الحمرة الجميلة كائنة في الشفق ذاته ، ولكنها صنعة عين
الإنسان ، هي التي خلقتها خلقاً حين تلقت ضوء الشفق ؛ وإذا
فليس الشفق أحمر إلا لأن عيناً تنظر إليه ، وهكذا قل في سائر
الصفات الثانوية التي تؤلف شطراً كبيراً من حقائق الأشياء .
وإن كان الأمر كذلك ، فماذا نطلب من الشاعر ؟ أنطالبه أن
يتقصى بعقله حقائق الأشياء في ذاتها ليصفها كما هي في الواقع ،
مستقلة عن حواس الإنسان ؟ إنه لو فعل ، كان بهذا الوصف
الموضوعي أقرب إلى الفلاسفة والعلماء منه إلى أصحاب الفن
والشعراء ؛ أم نطالبه بأن يصف دنياه كما تقع من نفسه ، مهما
تكن هذه الصورة الذاتية بعيدة عن الواقع ؟ نعم ، إنه ينبغي
للشاعر في رأى الناقد ألا يكثر بالأشياء في ذاتها ، بل واجبه
أن يصورها بالنسبة إليه ، ولهذا كان أعذب الشعر عنده أ كذبه .
وأيّ ما كان غرضه ، فلسنا نحب لرأيه أن يشيع ، ونؤثر
في ذلك رأى الناقد من أدباء الانجليز ، الذين يتخذون الصدق
مقياساً لجودة الشعر . وسأسوق في إيجاز شديد رأى ناقدين

يقعان من الأدب الإنجليزي في أعلى منازلها ، وهما « ما كولى » و « چون رَسْكِن » .

أما « ما كولى » (١٨٥٩ — ١٨٠٠) فقد كتب كثيراً في نقد الشعراء والناثرين ، ومن ذلك كتاب رصده لنقد الكتاب الشاعر « أدِسُن » ، فجاء في سياق البحث أن القائد الإنجليزي المعروف « مولبرا » حين ظفر بالنصر في موقعة بلنهم (وقعت في أغسطس ١٧٠٤) ، أخذ الشعراء الإنجليزي ينظمون القصائد في مدحه ، والإشادة بنصره ، ولكن التوفيق الفنى أخطأهم جميعاً ، لأنهم أخذوا يمتدحون فى « مولبرا » أنه صيغ الأنهار ، وخضب السهول بدماء الأعداء ، فلم يصادف هذا القول وأشباهه قبولاً من نقدة الشعر ، وأحس الناس أن هذه الواقعة الفاصلة ينبغي أن تلتبس سبيلها إلى الخلود عن طريق الشعر الرفيع . لذا لجأ بعض الوزراء إلى شاعر فذ ، هو « أدِسُن » وطلبوا إليه أن يجد بقصيدة من شعره الخالد فى « مولبرا » اعترافاً بفضلها ، ففعل ، وصادف عند النقاد كل إعجاب ؛ وأشد ما أثار إعجابهم سطر بلغ فى رأيهم ذروة الشعر ، يشبه فيه مولبرا بالملك المدبر فى عاصفة القتال الهوجاء ، فالدنيا ترج من حوله ، وهو رصين رزين يفكر ويدبر ؛ فقال « ما كولى » تعليقاً على هذا السطر

رأيه في وجوب الصدق في الشعر ، إذ قال ما ملخصه :

في رأينا أن أهم ما يمتاز به قصيدة «أَدِسُنْ» هو أنه اصطنع في شعره رصانة الرجولة ورزانة العقل الحكيم ، ونبذ الاغراق في الخيال نبذاً محموداً . إن الشاعر العظيم «هوميروس» قد تغنى بالحروب قبل أن تصبح الحروب علماً وفناً ، فكان إذا دبّت العداوة في عهده بين مدينتين صغيرتين ، بعثت كل منهما بأبنائها جميعاً إلى ساحة القتال لا يفقهون من وسائل النظام شيئاً ، وكل سلاحهم أدوات الصناعة شذبوها وهياؤها على نحو ساذج غليظ ؛ وكان كل فريق من المتحاربين يقوده نفر قليل من الرؤساء البارزين الذين مكنتهم الثروة أن يظفروا لأنفسهم بعدة حربية جيدة متينة وجياد كريمة وعربات حربية ، كما أتاح لهم الفراغ أن يدرّبوا أنفسهم على القتال تدريباً طويلاً . فكان الموهوب من هؤلاء القادة بقوة ممتازة وشجاعة نادرة ، أشد عنفاً وأعمق أثراً في ميدان الحرب من عشرين رجلاً من أوساط الرجال ، فهو يستطيع بقوته ورشاقته وشجاعته ومهارته في الرماية ، أن يكون له أبلغ الأثر في تقرير مجرى القتال . هكذا كانت المواقع أيام هوميروس : للرجل الواحد الممتاز شأن عظيم في رجحان كفة النصر في هذا الفريق أو ذاك . فمتى يكون هوميروس

صادقاً في شعره حين يصور الأبطال ؟ إنه يصدق لو رسم المحارب البارع في صورة العملاق الجبار ، الذي يقوى على قذف رواسخ الصخر ، وثقال الحراب والرماح . إنه حين صور « أخيل » وقد أدّرع بعدته الحربية ، وحمل رمحه الذي لا يقوى على حمله سواه من الرجال ، فساق أمامه جيوش الأعداء جميعاً ، لم يزد بذلك على أن بالغ مبالغة جميلة لصورة المحارب الباسل كما يتصوره أهل زمانه ، يصرع يمينه الأعداء رجلاً في إثر رجل ، في جرأة ومهارة وقوة . ولو اختار هوميروس لبطله صورة الرجل الرزين البارع في رسم الخطط الحربية في غير حاجة إلى قوة عضلية ومهارة في الرماية وركوب الخيل ، لكان شعره كاذباً لا يستحق منا التقدير والاعجاب . وإن الشعوب البدائية كلها لتفهم البطل على نحو ما تصوره اليونان وصوره هوميروس ؛ فيروى عن الممالك أنهم حين رأوا بونابرت أخذتهم دهشة عميقة ، أن يكون أعظم قادة أوربا رجلاً لا يزيد طوله على خمس أقدام ، ولا يحسن ركوب جواده ! فأين هو من بطلهم مراد بك الذي يمتاز بضخامة الجسم وقوة العضلات ومهارة التصرف في الرمح والجواد ؟

كان هوميروس إذاً صادقاً حين صور الحروب كما صورها ،

وحين رسم الأبطال كما رسمهم ، ولكن شعراءنا حين مجدوا « مولبرا » قلدوا هوميروس ، فجاء تصويرهم كاذباً يمجّه الذوق السليم . فهذا أحدهم يصف الجراح الدامية التي أنزلها مولبرا في أجساد الأعداء ، وهذا آخر يزعم أن « مولبرا » كان يرمى الرمح فيحصد الأعناق ، وهذا ثالث يقول إنه استطاع وحده أن يسوق أمامه ألوف الرجال وأن يصبغ الأرض بالدماء . ولكن هذه الصور جميعاً إن امتدحناها في هوميروس ، فإنما ننكرها من هؤلاء الشعراء .

فلما أراد « أدِسُن » أن يمجّد « مولبرا » كانت براعته أن تخلص من هذه الصور التقليدية ، إذ نجد في بطله صفات أخرى ، هي النشاط والحكمة والعلم الحربي وورباطة الجأش التي مكنته أن يظل في معمة القتال الصاخبة ، محتفظاً بقوته العقلية التي يختبر بها الموقف ويصرف بها الجنود .

فالصدق عند ما كولى — كما ترى — هو مقياس الشعر الصحيح .

وكذلك يرى « چون رَسْكِن » (١٨١٩ — ١٩٠٠) أن الصدق أساس لجودة الشعر . ولكن ماذا يعنى بالصدق ؟ إن الشاعر إنسان تثور فيه العواطف فآثرة حيناً عنيفة حيناً آخر .

فهو حين ينظر إلى الأشياء لا ينظر إليها نظر العقل الفلسفى المجرد ، بل إن عاطفته لتصبغ نظره هذا بصبغة خاصة ، راضياً كان أو كارهاً ؛ وكل قارئ فى وسعه أن يذكر حالات من حزنه وفرحه ، فيقارن بين نظره إلى الدنيا فى كلتا الحالتين : هى باكية فى عينه إذا حزن ، باسمة إذا ابتسم ؛ فالشاعر الطروب حين ينظر إلى زهرة صفراء قد تدفعه العاطفة أن يصورها كأساً من ذهب ، وحين يسمع خرير الماء يصور الماء مُغرداً شادياً ، والشاعر الحزين يسمع صوت العاصفة يظنها مزججة غاضبة ... أفنقول إن هذا قول كاذب لا يصور الحق ؟ .

يقول رَسَكِنْ إن الخطأ نوعان : خطأ الخيال المرید ، الذى يختار بنفسه الصورة الخيالية وهو عالم أنها خيال ، ولا يتوقع من القارئ أن يختلط عليه الأمر فيصدقها على أنها الحقيقة الواقعة ، كمن يصور الهلال سفينة من فضة أثقلتها حمولة من عنبر . وخطأ سببه اضطراب المشاعر اضطراباً يحول دون الحكم الصحيح ، كالذى يرى البحر يلتهم الغرقى أثناء العاصفة ، فيصوره وحشاً ضارياً أراد أن ينتقم ؛ فالعقل فى مثل هذه الحالة يضيف للشئ صفات الأحياء ، لأن قواه العاقلة قد هدَّها الحزن وأوهنتها قوة المشاعر . وقد تعود الناس أن يعدوا هذه الأباطيل تصويراً شعرياً

جيداً ، وأن يظنوا أن الحالة النفسية التي تميز أ كاذب العواطف
 جديرة بالشاعر . ولكن رَسْكِنْ يرفض ذلك ، ويعتقد أن
 الشعراء الفحول يأبون على أنفسهم هذا الضرب من الكذب ،
 وأن شعراء المرتبة الثانية هم الذين يجيزون هذا ويسيفونه . وهنا
 يسرع رَسْكِنْ فيثبت رأياً جديراً — في نظرى — أن ننشره
 بكل قوة هنا في مصر ؛ وهو أن شعراء الطبقة الأولى وحدثهم هم
 الذين يستحقون منا العناية ؛ وأما مَنْ دونهم فليس خليقاً بنا أن
 ننفق في قراءة شعرهم وقتاً ولا مجهوداً . وفيهم هذه التضحية وأمامنا
 من الشعر الجيد ما يملأ أيام الحياة ؟ « إنها جريمة ترتكبها في
 حق نفسك أن تفنى شيئاً من فراغك في شعر لم يبلغ من الجودة
 حداً الأقصى . ولست أقبل هذه الأعذار التي يرددها القائلون
 بأن صغار الشعراء لهم يوم ينبغون فيه ، وأن ما يكتبونه فيه بعض
 الخير . وعندى أنه إذا لم يكن في الشعر كل الخير فلا خير فيه .
 فليشعل صغار الشعراء النار في إنتاجهم ، ولينتظروا اليوم الذى
 يجودون فيه » .

إن مَنْ يستسيغ الخطأ العاطفى شاعر خارت قواه حتى لم يعد
 يقوى على ما هو بصدده ، فطغى عليه هذا وأزاع بصره عن الحق .
 إننا نريد العاطفة لا لتصرعنا بل لنغالبها فنغلبها ، وهذه هى سمة

العبقريّة الشعريّة وعلامة النبوغ الفنّي . نعم إنّها منزلة لا بأس بها أن تبلغ العواطف من القوة ما يغري العقل بتصديقها ، ولكن منزلة أسمى من هذه وأرفع ، أن تقوى العاطفة وتقوى العقل معها ، ليقرر سلطانه أمام طغيانها ، أو ليؤازرها مؤازرة لا تنتهي بضعفه واندهاره ؛ بهذا يبلغ الشاعر أعلى مراتب النبوغ .

فالناس عند رَسْكِن ثلاثة رجال : رجل يدرك الحق خالصاً لأنه لا يشعر ، فيرى الوردّة وردة لا أكثر ، لأنه لا يحبها حباً يزيد على حقيقتها شيئاً ، وهذا بعيد عن الشعر لا يقع منه في كثير أو قليل . ورجل يدرك إدراكاً باطلاً لأنه يشعر ، فالوردّة قد تكون في نظره أي شيء إلا أنها وردة ، فتكون نجماً ساطعاً ، أو حجراً كريماً ، أو غادة راقصة ، ولكنها لا تكون وردة أبداً ، وهذا هو شاعر الطبقة الثانية . ورجل يدرك إدراكاً صحيحاً على الرغم من شعوره القوي ، فيرى الوردّة وردة دائماً ، ولكنه يضيف إلى حقيقتها ما تزدهم به مشاعره ، وهذا هو شاعر الطبقة الأولى .

فعظمة الشاعر إذاً مرهونة بعاملين : دقة الشعور ، والسيطرة عليه ؛ فهو لا ينطق إلا بما يحس ويشعر ؛ فالشاعر الجيد قد يصف البحر الهاائج بالغضب ، وكذلك يفعل الشاعر الرديء ، ولكن

الفرق بينهما أن هذا الشاعر الرديء لا يستطيع أن يصف البحر
إلا غاضباً . وأما الجيد فقادر على ضبط العادات الفكرية وأخذ
نفسه بالحقيقة الخالصة .

وهكذا يرى الناقد المثقف البصير أن أعذب الشعر أصدق ،
فليسمع الشعراء .

قوة الخيال

نقد أديبٌ أديباً منذ حين ، فقال إنه مستطيع لو حلل كلامه
أن يردّه إلى أربابه جزءاً جزءاً ؛ وقرأتُ هذا فقلتُ لنفسى :
يا ليت شعرى : أين الكائن الحى الذى لا يستطيع العلمُ أن
يرجعه فى الخباير إلى أصوله عنصراً عنصراً ؟ ووقعت عيني حينئذ
على أناملى ممسكة بالصحيفة ، فقلت : وداعاً أيتها الأنامل ، فلم
تعودى بعد اليوم بأناملى ؛ وكيف تكونين ، وهذه الكيمياء
تتربص بك الدوائر لتحملك إلى معاملها فتخلصَ إلى نتيجة
محتومة ، هى أنك تأليف من عناصر عندها أنباؤها ؟ بل وداعاً
أيتها النفس ، وأنتِ منى سرٌّ وجودى ! فما أنت سوى حلقات
متتابعات من المشاعر والخواطر ، أستطيع أن أرد كل حلقة منها
إلى أصل مما وقعت عليه الحواس !

ثم شاء الله لى الهداية بعد حين لم يطلْ ، فما هى إلا دقائق
معدودات حتى تناولت كتاباً كان ملقى أمامى ؛ ودسستُ فيه
إصبعى ، فإذا بمقال منشور ، كاتبه إمرؤُسن ، وعنوانه « شيكسبير ،
أو الشاعر » ، فوجدته يقول ما ملخصه :

يتميز عظماء الرجال بسعة آفاقهم وامتدادها أكثر مما يتميزون بالأصالة والابتكار؛ فإذا اشترطت للنبوغ أصالة قوامها أن ينسج النابغ ديباجته مما يستخرج من أمعائه كما تفعل العناكب، وأن ينشئ لبنائه اللبنيات إنشاءً من طين يخلقه من جوفه خلقاً، فلن تجد بين النابغين الفحول عظيماً واحداً جديراً منك بهذا اللقب؛ إن أنبغ العباقرة هو أكثرهم ديناً لغيره من الناس... إن العبقري لا يستيقظ ذات صباح مشرق جميل فيقول: «أنا اليوم مليء بالحياة، سأخذ سمتي نحو البحر لأخلق من العدم قارة جديدة، إني اليوم سأربّع الدائرة، وسأجد للإنسان طعاماً جديداً...»، كلا، بل إنه ليجد نفسه في خضم يضطرب من حوله بالأفكار والحوادث، فيندفع في تياره مع سائر معاصريه؛ إنه يقف ليشخص ببصره حيث تشخص أبصار الناس جميعاً، ويتجه إلى حيث تشير أيديهم... إني لأكاد أجزم بأن أعظم مراتب النبوغ لا تركز على الأصالة قطعاً، بل عظمة النبوغ في أن يكون الرجل مستقبلاً للآثار من حوله وحسب... إن شيكسبير في حقيقة أمره مدينٌ لغيره في كل جوانب نبوغه، وقد كان قادراً على استخدام كل شيء وقعت عليه يده؛ فأنت تعلم كم استعمار إذا قرأت هذا البحث المجهود الذي قام به «مالون» في تحليل رواية

« هنرى السادس » ، إذ قال : « إن مجموع أسطرها ٦٠٤٣ ، من هذه الأسطر ١٧٧١ كتبها بنصها أسلاف لشيكسبير ، و ٢٣٧٣ كتبها بلغته ، ولكنها من أفكار السابقين ، ولا يخلص له سوى ١٨٩٩ سطرًا » .

إن لشوسر أثرًا عميقًا فى الأدب الانجليزى القديم بأسره ، كما أثر — فى العصر الحديث — فى « پوب » و « دريدن » وغيرهما من الكتّاب الانجليز ؛ فبالها من تربة خصبة أطعمت كل هؤلاء الآكلين ، ولكن شوسر هذا كان « مستعيرًا » عظيمًا ، فقد كان يأخذ عن غيره كل أدبه ، حتى إن بعض إنتاجه ليس يزيد عن الترجمة الصريحة .

إن شوسر يسطو على غيره ، ولكنه يعتذر عن ذلك بقوله إن ما يأخذه لا قيمة له حيث يجده ، ولكن له أعظم القيمة حيث يضعه من جديد ؛ ولقد باتت قاعدة فى الأدب أن الأديب إذا برهن مرة على أنه قادر على الكتابة المبتكرة فله الحق بعد ذلك فى أن يسطو ما يشاء على إنتاج الآخرين ؛ ذلك لأن الفكر ملكٌ لكل من يستطيع أن يستخدمه استخدامًا حسنًا ، وأن يضعه وضعًا ملائمًا . إن الفكر المستعار يظل بغيضا حتى تعرف ماذا تصنعُ به ، وعندئذ يكون ملكًا لك .

تلك خلاصة موجزة أشد إيجاز لما قرأتُ لأمرسُن في ذلك
المقال ؛ ولكن مالى ولنقد الأدب في هذا ، وهام أولاء علماء
النفس يجمعون على أن الخيال المبتكر ليس لمبتكره فيه إلا فضل
التأليف بين عناصر موجودة فعلاً ؛ إن قوة الخيال هي أن تجمع
أشتاتا متفرقات مما حولك ، فتنفخ فيها من روحك فإذا هي خلق
جديد ! إن قوة الخيال هي أن تربط العلاقة بين شيئين أو مجموعة
من الأشياء لم يسبقك إلى ربطها على هذا النحو إنسان ؛ فقد
كان بنيامين فرانكلن ذا خيال بديع حين أدرك الرابطة بين البرق
والكهرباء ، ولم يكن — بالطبع — خالقا للبرق ولا للكهرباء ؛
وكان جيمس وات ذا خيال مبتكر حين كشف عن الصلة بين
البخار في وعاء الشاي وبينه إذا وضع في قاطرة تنساب على قضبانها
فتربط أطراف العالمين ؛ وكان شيكسبير ذا خيال مبدع حين
تناول قبضة من أشتات التجارب التي يشهدها مضطربة في الدنيا
من حوله ، ويشهدها معه الناس جميعاً ، فربط بين أجزائها ،
فإذا هي ملوكٌ تحكم وقوادٌ تغزو وخدمٌ تطيع ؛ ثم أهبط من سماء
العلم والأدب إلى عالم الأعمال من حولك ، فهذا تاجر عرف كيف
يكسب المال ألوفاً ، وذلك زارع عرف كيف يستدر الأرض
ذهباً نضاراً ؛ فبم امتاز الزارع والتاجر حين تقلبا في أعطاف

النعيم ، والناس من حولهم ينظرون نظرة ملؤها الحسرات لهذه الدنيا تفلت من أيديهم جرداء جدداء ؟ قد امتازا بقوة الخيال الذي يربط بين شتى الحقائق التي يدر كلها كل إنسان !

نعم إن الدنيا لا تفسح صدرها إلا لذوى الخيال الخلاق ، ولكن حذار يا صاحبي أن تظن بهذه القوة أنها ضرب من إرادة القدر أو سر من أسرار الروح يعز عنك بلوغه ؛ إنك إن ظننت هذا فقد ظلمت نفسك ، وكتبت لها الحرمان ؛ إن عناصر الخيال تحت يدك وطوع أمرك ، فمرها إن شئت تكن لك خلقاً جديداً ! ولست أعنى بتلك العناصر إلا تجاربك التي أخذت في تحصيلها مذ كنت إنساناً واعياً ؛ فحرك هذه التجارب في نفسك ، وحاول أن تربط بين أجزائها ربطاً جديداً ، فتصبها في قالب جديد ؛ اتخذ من تجاربك ما يتخذ النحات من قطعة الرخام ، والكاتب من الألفاظ ، والطاهي من مواد الطعام ، والبناء من عناصر البناء . . . إنك إن فعلت فأنت ذا خيال مبدع مبتكر .

كأنى بقارئى لا يزال يأساً من نفسه ، ظاناً بها العقم فلا تلد ، والجود فلا تخلق ! فإن كنت كذلك فاحمل قلمك الآن قبل أن تمضى فى القراءة وابسط أمامك قطعة من ورق ، أو — إن أردت — فاستخدم هامش هذه الصحيفة ، وارسم حيواناً لم تقع

على مثله عيناك ولم تسمع بوصفه أذناك ؛ امض فيما أشيرُ عليك به الآن ، وأنا زعيمٌ لك بقدرة خيالك على تصوير هذا الخلق الجديد ، ولا يؤسِّنكَ أن يخرج رسمك قبيحاً خالياً من الفن ، لأنه خلقٌ جديدٌ على كل حال ، ينهض أمام عينيك برهاناً على أن لديك ما زعمته لك من قوة الخيال ؛ ولعلك إن رعيتها بالغت بها أمداً بعيداً ... قد تنظر إلى رسمك فتقول : ولكنى لم أخلق شيئاً ، فهذا الجناح رأيتُه في الطائر ، وذلك السنام شهدته على جمل ، وذلك الخرطوم وجدته في الفيل ، وهذا الذنبُ عرفته في قطي ، ولم يكن لي من الخلق سوى أن جمعت الجناح إلى السنام إلى الخرطوم إلى الذنب ؛ قد تقول هذا ، ولكن ما ظنك يا صاحبي إن أنبأتك أن شيكسبير أو فيكتور هيجو أو المتنبي لم يكن له في إنتاجه سوى أن ألف بين جناح وسنام ؟ تلك هي قوة الخيال ؛ فلا عيب في أن تجمع بين أجزاء عرفتها ، وإنما العيب أن تترك الأجزاء منشورة فلا تصل بينها برباط .

فاحفظ إذاً هذا الدرس الأول في قوة الخيال ، وهو أن في مقدورك أن تصوغ تجاربك التي حصلتها أثناء الحياة بحيث تبدع منها خيالاتاً هو في مجموعها جديد لم يسبقك إليه إنسان ؛ وعلى قدر ما حصلت من التجارب ، وعلى قدر جهدك في استغلال هذا

المحصول تكون منزلتك بين أصحاب الخيال ؛ فلتن شاقك أن تكون بين قومك شيكسيير زمانهم ، فاجمع ما ظفرك به من تجربة ، ثم حرك أجزائه في نفسك حركة عنيفة حتى تتبعثر وتنتثر ، ثم ألف بين جوهرة من هنا وجوهرة من هنالك ، يكن لك من خيالك عقد فريد مبتكر ! نعم إن بعض الأذهان مغلق لا خيال له ، ولكنك لست واحداً من هؤلاء ، فحسبك دليلاً على قدرتك العقلية أنك احتملت قراءة هذا القدر من هذا المقال ؛ وما دمت ذا خيال مبدع فهات دلوک أدل به في الدلاء ، لعله يخرج إليك بكثير أو قليل من الماء ، فما هو ذا العالم مليء بمشكلاته التي تتطلب كل ضرب من ضروب الخيال حلها ، فانظر كم في مصر من مشكلات الاقتصاد والاجتماع ! إن العناصر المطلوبة لمعالجها موجودة كلها ، كن من ذلك على يقين ؛ عناصر العلاج موزعة بين الناس جميعاً ، ولكن ما أقل من يستخدم معرفته من الناس ! ما أقل من يُعملُ خياله ، فيجمع بين منشور الحقائق ، ليصل إلى حكم جديد مفيد ! فهل يستحيل أن تكون أيها القارىء واحداً من هؤلاء القليل ؟ كلا ، فانسج لنا مما عرفت ديباجة فكرية جديدة لعلها تقوّم معوجاً أو تصلح سقيماً ؛ ولا تخش أن يقول قائل عنها إنها ديباجة يمكن للنقد أن يرد لحمتها وسداها إلى أربابها .

ولكن حذار أن تكون في خيالك حالماً ، فحدد خيالك
بالحقائق الواقعة ، وإلا طار مجهودك أدراج الرياح ؛ فاحلم في
خيالك ما شئت ، على أن تكون هذه الأحلام ممكنة الوقوع ،
فليس من الحكمة أن تطير بخيالك في الهواء ، وعلى هذه الأرض
ما يحتاج ألف خيال .

كم قرأت من القصص ؟ وكم شهدت وسمعت من ألوان
الوسائل التي تدر ربحاً هنا وشهرة هناك ؟ ألم يتردد في نفسك شيء
من الندم حين قرأت القصة الجميلة أن لم تكن كاتبها ؟ ألم تحسَّ
ظلاً خيفاً من الحسرة حين رأيت فلاناً يكسب المال بفكرة
ابتكرها ، وفلاناً يظفر بالصيت البعيد لرأى خلقه وابتدعه ؟ فقد
أردت اليوم أن أدلك على أن تلك الفكرة وهذا الرأي وما إليهما ،
ضروب من الخيال ، نسجه أصحابه من عناصر تحت الأبصار
والأسماع ؛ وفي وسعك وفي وسعي أن ننسج منها على منوال
جديد مبتكر ، لو أخذنا أنفسنا منذ الآن بالتدريب والمران ؛
وأؤكد لك يا صاحبي أنك واجد في أعمال الخيال لخلق جديد
متعة قل أن صادفت لها ضرباً في ألوان المتاع ، مهما يكن هذا
الوليد الذي تخلقه بخيالك : قصة ، أو قصيدة ، أو تمثالا ،
أو زخرفاً ، أو فكرة جديدة في الصناعة إن كنت صانعاً ، وفي

التجارة إن كنت تاجراً ... إن كنت من رفقاء المحابر والأقلام ،
فحاول الكتابة تكن كاتباً بعد فشل قليل أو كثير ، ما دمت قد
مرنت على تصنيف أجزاء تجار بك — بمالك من قوة الخيال —
في ثوب جديد ؛ وإن كنت من أرباب العمل فقلب النظر في
رحمة الناس ، في القطار والحديقة والطريق ، ومائل نفسك مرتكزاً
على تجار بك : ماذا يريد هؤلاء الناس فلا يجدونه ؟ فقد تستعين
بخيالك على ربط حقيقتين أو طائفة من الحقائق ، فيهبط عليك
الثراء من حيث لا تحتسب .

خذها كلمة ناصح : تناول قوة الخيال عندك بالتهذيب
والتدريب ، يتسع أمامك في هذا العالم الضيق آفاق بعد آفاق .

لماذا لا ننخلق

- ١ -

لست أعرف للحياة معنى إلا أنها قدرة الكائن الحى على الخلق والإبداع ؛ هذه الشجرة كائن حى لأنها تخلق من التراب غصونها وأوراقا وزهورا وثمارا ؛ وهذا الطائر كائن حى لأنه يخلق مما يشبهه العدم بيضا تخرج منه الأفراخ ؛ والإنسان حى بقدر ما هو مبدع خلاق ، والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هى قادرة على الخلق والإبداع .

قال صاحبي : هذا كلام مكرور معاد . ماذا يجدى أن تقول القول فلا تأتينا فى القول بجديد ؟ .

قلت : معذرة يا صاحبي ، فلکم لقيت من الناس من يضطرك اضطرابا أن تقسم له أغلظ الأيمان أن الحشائش خضر وأن السماء زرقاء ! لکم لقيت من الناس فى هذا البلد الأمين من يحزنه أن يقال عن الإنسان إنه خالق مبتكر قوى غلاب ، بقدر ما يفرحه أن يقال له عنه إنه ضعيف عاجز مسكين ! إن من الناس من أصابهم الله فى أنفسهم بالعقم والجود ، ونظروا إلى

الدنيا من حولهم بمنظير نفوسهم ، فلم يروا فيها إلا ضعفا وعجزا وعقما وجمودا ؛ قل لهم : إن الإنسان مستطيع ذات يوم أن يغزو الكون بعلمه ، وأن يستخرج أسرار الطبيعة من بطونها ليستخرجها تسخيها ، يعبسوا لك ويقطبوا الجبين ؛ وقل لهم : إن هذا الإنسان مخلوق ضعيف متهافت هزيل ضئيل ، يصفقوا لك إعجابا وتعظيما ! إنهم يرحبون بما يحد من قدرة الإنسان ، وتهلل بالبشر أساريهم إن قيل إن سلطان القدر فوق كل سلطان ؛ إن سادت طبقة من الناس على طبقة فهذا حكم القدر ، وإن هبطت أثمان السلع في السوق فهذا حكم القدر ، أو ارتفعت الأثمان فهذا حكم القدر ، وإن تفشى البؤس والمرض والفقر والجوع فهذا أيضاً حكم القدر ؛ وسأنسى كثيراً جداً مما قرأت ، ولكن مهما أنسيت فلن أنسى أبد الدهر مقالا قرأته لأديب فاضل جليل فنزل على نفسي نزول الصواعق ، وكان قد زاد من حسرتي أنه مقال جميل ! قرأت مقالا ينهى فيه الأديب الجليل الفاضل ابنه أن يحزن لمنظر بأس جائع يجمع الفتات من ثنايا القمامة والروث والطين ، قائلا لابنه : يا بني لا يجمل بك أن تحزن فهذا حكم القدر ، وإن في حكم القدر لحكمة تخفى عن الأبصار ! ثم قرأت للأديب الفاضل نفسه مقالا يعرض فيه على قرائه بعض ما وصل إليه العلماء في الغرب ،

فأشاع في كلامه تهكما على العلماء ومجهودهم ، لأنهم في رأيه
يخطئون رؤوسهم في جدر صماء ! إننا لا ننقد العلماء لأننا نعرف
أين يخطئون وكيف يضلُّون ، لكننا ننقدم لأنهم يخلقون
ونحن لا نحب الخالقين ! ننقدم لأنهم قادرون ونحن
لا نحب القادرين ، ننقدم لأنهم لم يستسلموا للعجز ونحن إنما
نحب العاجزين !

نحن لا نخلق جديداً ، ولا نريد أن نخلق جديداً ، بل يسىء
إلينا أن نسمع عن إنسان أو عن أمة أنها تحاول أن تخلق جديداً ؛
لكن الحياة معناها القدرة على خلق الجديد ، والإنسان حي بمقدار
ما هو مبدع خلاق ، والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هي
قادرة على الخلق والإبداع ؛ ألا يأخذك يا صاحبي الهم والغم والحزن
أن تتلفت فلا ترى إلا جدبا ونضوبا وعقما وجهودا ؟ إننا لا نكاد
نخلق شيئا واحدا جديداً في العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن
نتقدم به بين يدي الله يوم الحساب ، فنقيم الدليل على أن الحياة
التي هيئت لنا أسبابها لم تذهب أبديداً .

لا نكاد نخلق شيئا واحدا جديداً في العلم ، وأعيدك يا صاحبي
أن تخدع فتمزج بين العلماء وطلبة العلم ؛ فالفرق بعيد بعد ما بين
الأرض والسماء ، بين عالم ينتج الرأي الجديد وبين رجل يحفظ

ويفهم ما أنتجه العالم من رأى جديد ؛ علماؤنا تلاميذ كبار ،
والفرق بينهم وبين التلاميذ الصغار هو أن هؤلاء الصغار لا يزالون
يحفظون ما درسوه ، وأما أولئك الكبار فقد أنستهم مشاغل
الزمن ما حفظوه ؛ الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض بين
الرياضي وطالب الرياضة ، وقد يكون طالب الرياضة طفلاً قصير
المراويل ، وقد يكون رجلاً له لحية وشارب ، الفرق بعيد بين
فيثاغورس حين أقام البرهان على نظريته في الهندسة وبين التلميذ
— صغيراً كان أو كبيراً — يحفظ هذا البرهان ؛ هذا التلميذ
وفيثاغورس قد يتساويان في العلم بهذه النظرية وبرهانها ، ومع
ذلك ففيثاغورس رياضي لأنه خلق البرهان خلقاً من العدم
أو ما يشبه العدم ، والتلميذ تلميذ لا أكثر ولا أقل لأنه لم يزد
على أن حفظ وفهم ؛ فإن زعم لك زاعم بعد اليوم أن بيننا
العلماء والرياضيين ، فاسأل : ماذا خلقوا من جديد في العلم
أو الرياضة ، ولا تسأل ماذا حفظوا ، وإن كان للحفظ عند الله
أجر وثواب !

ونحن لا نكاد نخلق شيئاً جديداً في الأدب ، وإني أعيدك
مرة أخرى أن يخدعك الترقيم الأسود على الصفحات البيض ،
أعيدك أن تخدع بما يقوله أدباؤنا عن أنفسهم وما يتقارضونه فيما

بينهم من حمد وثناء ؛ واجعل مقياسك شيئاً واحداً إن أردت الهداية والسداد ، وهو الخلق والإبداع ؛ سل أدباءنا : كم « شخصية » خلقها الأدب المصرى كله من أول الزمان إلى يومنا هذا ، بحيث أضاف بخلقها إلى مخلوقات الله إنساناً جديداً يشيع ذكره بين الناس أضعاف ما يشيع ذكر سائر الناس ؛ ولست أريد أن أزيد من يأسك أيها القارئ الكريم ، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة سهولك وتشيع الخسرة في نفسك ، وهى أن من أدباء الغرب من خلق وحده ستين « شخصية » أو سبعين !! أديننا — مثل العالم عندنا والرياضى — تلميذ كبير ، مقالته تختلف عن موضوع الإنشاء يكتبه التلميذ الصغير فى الكم لا فى الكيف ، تختلف فى الدرجة لا فى النوع ، فالأديب محصوله من الأفكار أعظم من محصول التلميذ الصغير ، وثروته من الألفاظ أغزر ، فإذا قيل للتلميذ الصغير — مثلاً — أكتب موضوعاً فى « وجوب العناية بالأطفال » ، ثم قيل للأديب الكبير أكتب مقالا فى هذا الموضوع ، جاءنا الأول فى موضوعه الإنشائى بفكرة واحدة وجاءنا الثانى فى مقالته بعشرة أفكار أو عشرين ، وربما أخطأ التلميذ الصغير فى النحو واستعمال الكلمات عشر مرات ، وأخطأ الأديب الكبير مرة واحدة ؛ فالفرق — كما ترى — بين التلميذ والأديب

فرق عددى لا فرق فى نوع المكتوب ؛ أما أن يكتب أديبنا شيئاً من نوع آخر فليس ذلك فى مقدوره ، لسبب بسيط ، وهو أنه عاجز عن الخلق ، وليس فى استطاعته أن يبدع وأن يبتكر ؛ ستقول : وماذا تريد من الأديب أن يصنع سوى أن يكتب أفكاراً كثيرة فى لغة جميلة لكي يجيء ما كتبه مقالة أدبية ممتازة ؟ وليس لى جواب عن سؤالك إلا أن أشير عليك بقراءة المقالة الأدبية عند أبطالها « مونتينى » و « أدسن » و « لام » وغيرهم لتعلم فى يقين أن الأدب المصرى كله لا يكاد يحتوى على مقالة أدبية واحدة من الطراز الممتاز ؛ ولست أريد أن أزيد من يأسك ، وإلا لذكرت لك حقيقة مروعة سهولك وتشيع الحسرة فى نفسك ، وهى أن الأديب المصرى لا يكاد يعرف إلا المقالة وسيلة للتعبير ، على حين أن المقالة فى الآداب الغربية لا تكاد تكفى وحدها أن تنشى أديباً .

لقد حدث مرة أنى كنت أمثل بلادنا فى مؤتمر ثقافى جمع عشرات من ممثلى الدول الأخرى ، وأريد منا أن يكتب كل قائمة تحتوى على عشرة كتب أدبية من إنتاج بلده مما يصح أن يترجم إلى سائر اللغات فيكون أدباً عالمياً ، لأنهم رأوا فى ذلك وسيلة لتوثيق العرى بين الأمم ، فانتبذت فى المساء ركناً أفكر

وأفكر ثم أفكر ، لعلى مهتد إلى عشرة كتب أقدمها للعالم
نموذجاً لأدبنا ، مما يصح أن يكون أدباً عالمياً ، فلم أجد ، وإني
أتحدى قارئاً يزعم عنى الخطأ والضلال أن يذكرنى بما قد نسيت
من روائعنا الأدبية التى يجوز لنا أن نتقدم بها إلى العالم فخورين !
ولست أريد أن أزيد من يأسك أيها القارئ الكريم ، وإلا
لذكرت لك حقيقة مروعة سهولك وتشيع الحسرة فى نفسك ،
وهى أن الرجل من إنجلترا أو فرنسا — مثلاً — لو سئل هذا
السؤال لأغمض عينيه ، ووضع يده على كاتب واحد من أدباء
بلده ، فى جيل واحد من الزمان ، وانتمى للناس عشرة كتب لهذا
الكاتب الواحد فى هذا الجيل الواحد !!

إننا لا نكاد نخلق من الأدب شيئاً جديداً ، هذا ما أزعجه
وما أعتقد أن قارئى سيجادل فيه أشد الجدل ، لأنه سيجد حوله
كتباً تطبع وخطباً تسمع ، وسيجد فى الصحف أنهاراً بعد أنهار
من النثر والنظم ؛ ما هذا كله إن لم يكن أدباً ؟ والحق أنى
أقدر كل التقدير شيئاً كثيراً جداً من هذا كله وإن تمنيت
على الله شيئاً فهو أن يكثر لنا من أمثاله ليزيل عن أبصارنا
غشاوة وعن بصائرنا حجاباً ؛ لكننى مع هذا التقدير كله والإعجاب
كله لا زلت أزعج — وفى القلب حسرة — أننا لا نكاد نخلق

فى الأدب شيئاً جديداً ؛ قد يكتب لك الأديب المصرى ، فإذا الذى يكتبه رأى فى علم الاجتماع يبسطه ، أو فى علم النفس يشرحه ، أو قطعة من التاريخ يرويها ، أو مذهب فى السياسة يريد له الذبوع والشيوع ؛ قد يكتب لك الأديب المصرى عن المتنبي ليقول لك إنه شاعر عظيم ، أو يترجم لك عن شكسبير ليقول إنه شاعر أعظم ؛ وهذا كله نافع جداً ومفيداً جداً ، ونتمنى على الله أن يزيد لنا منه ، لكنه رغم نفعه وفائدته شئ والخلق الأدبى شئ آخر .

كلا ، ولم نخلق شيئاً واحداً جديداً فى الفلسفة ، وإني أعيدك مرة ثالثة أن تخدع بما يزعمه لك « تلاميذ » الفلسفة عن أنفسهم ، فأقسم لك بالله غير حاث أننى ضحكت وقهقهت حتى استلقيت فى مقعدى حين قرأت ذات يوم لأستاذ جليل تعلم الفلسفة ويعلمها ، يقول فى مجرى كلامه : « نحن الفلاسفة ... » !
وقل مثل هذا فى الفن وما شئت من نواحى الفكر .

أعود فأقول إن الإنسان حى بمقدار ما هو مبدع خلاق — والأمة تسرى فيها الحياة بمقدار ما هى قادرة على الخلق والإبداع ؛ ثم أعود فأزعم أننا لا نكد نخلق شيئاً واحداً جديداً فى الأدب أو العلم أو الفلسفة أو الفن .

لماذا لا نخلق ولا نبتكر؟ هذا هو السؤال .
والجواب عندي هو أننا لا نخلق ولا نبتكر لأن لنا أخلاق
العبيد ، والخلق لا يكون إلا بعد سيادة وعزة وطموح ؛
وسأشرح لك هذا الرأي في المقال التالي .

لماذا لا نخلق

— ٢ —

زعمت لك في المقال السابق أننا لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن ، وأعدتها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم ، حين أعدتك بالله من خديعة الشيطان التي قد توهمك بشبه بين العالم وطالب العلم ، بين الأديب وشارح الأفكار ، بين الفيلسوف وقارئ الفلسفة ، أو بين الفنان ومن يتحدث في الفن وينقده ؛ وزعمت لك أن الفرق بعيد بعد ما بين السماء والأرض بين الرجل يخلق ما يقوله خلقاً من العدم أو ما يشبه العدم ، وبينه يفهم ما خلقه سواء ويعيه ، بل يطبقه ويستخدمه أحسن استخدام وتطبيق ؛ فربما رأيت طلابنا في المدارس يتعلمون الطبيعة والكيمياء ، والرياضة والأدب ، ورأيت الناس في شوارعنا وبيوتنا يستخدمون السيارة والمسرة والبرق والمذياع ، ربما رأيت ذلك كله فصحت لنفسك في إعجاب : أما والله إن منا لعلماء ومعلمين ومتعلمين ، أين الفرق — إذاً — بيننا وبين بلاد الغرب التي سارت بذكرها الركبان ؟ فأنا أعلم سرعة الوقوع في مثل هذا الخطأ ؛ مثال ذلك أنني كنت

أتحدث إلى طيب مصرى قدير نابه على شاطئ البحر من مدينة
« برايتن » فى إنجلترا .

قال الطيب الصديق : جئت إلى هذه البلاد (إنجلترا)
يحدوني الأمل أنى لا شك واجد عند أساطين الطب ما يستثير
منى العجب والإعجاب ، فإذا بالأساطين لا يكادون يسمعوننى فى
الطب جديدا ؛ أفنحن بعد ذلك مصدقون لما يذيعه المعجبون بهذه
البلاد وأصحابها ؟ .

فقلت له : لا تخط يا صديق بين الإبداع والتقليد ، وحذار
أن تمزج بين الابتكار والتكرار ؛ فهؤلاء الناس هم الذين خلقوا
لك الطب خلقاً بعد بحث ودراسة وتمحيص ، ثم دونوا علمهم فى
كتاب ثم أرسلوا لك الكتاب وأنت فى القاهرة المعزّية ناعم
البال ، فنشطت كما ينشط « الشطار » وحفظت الكتاب عن
ظهر قلب من الغلاف إلى الغلاف ، فإذا ما جئت اليوم ها هنا
وسمعت صاحب الكتاب ومبدع مافيه يتحدث إليك بما يرن فى
أذنيك رنين المعهود والمألوف ، فلا يخذعك ذلك عن الحقيقة
الساطعة ، وهى أن من بحث ودرّس ومحص ثم دون نتائج بحثه
ودرسه وتمحيصه هو الطيب العالم ؛ أما أنت فتلميذ « شاطر »
حفظ ووعى وطبق ما حفظ وما وعى .

فلو فرضنا أن جماعة من الجن تأمرت على ثمار المدينة كلها
فمحتها محوا بين عشمية وضحاها ، واستيقظ الناس ذات يوم ليروا أن
بلادهم قد دخلت من سياراتها وطياراتها وعلومها وآدابها وتصاويرها
وتماثيلها ، بل لو فرضنا أن جماعة الجن المتآمرة قد أحكمت تدبير
المؤامرة فعمدت إلى محو كل أثر لهذه الأشياء من أذهان عارفها ،
لو فرضنا ذلك لتوقعنا لانجلترا أو فرنسا — مثلا — أن تنتج
السيارة والطيارة من جديد ، وأن تخلق علومها وتنشئ آدابها من
جديد ، وأن ترسم تصاويرها وتنحت تماثيلها من جديد ، لأن
هذه الأشياء كلها كانت من خلقها وإبداعها ، وليس أيسر على
الخالق من أن يعيد خلقه سيرته الأولى ؛ أما نحن الذين لم نخلق
من هذا كله شيئا ، فسيكتب علينا بعد مؤامرة الجن أن ننتظر في
خلاء حتى يفرغ أولئك الخالقون من خلقهم وإنتاجهم ، فننقل
بعض ما خلقوا وما أنتجوا ؛ ثم سرعان ما يأخذنا الغرور فنصبح
لأنفسنا هاتفين : الآن قد استوى الماء والخشبة ! لقد زال ما بيننا
وبين الغرب من فروق !! لكن الفرق بعيد بعد ما بين السماء
والأرض ، بين الابتكار والتكرار ؛ هم في الغرب يخلقون ،
وقصارى جهدنا أن ننقل عنهم بعض ما خلقوا ؛ فلماذا لا نخلق
ولا نتكرر ؟ هذا هو السؤال الذي أقيته في ختام المقال السابق

وردت عليه في إيجاز بما أراه جوابا صوابا ، وهو أننا لا نخلق ولا نتذكر لأن لنا أخلاق العبيد ، والخلق إنما يحتاج إلى سيادة وعزة وطموح ، وقد وعدتك أن أفصل القول في هذا الرأي بعض التفصيل .

والرأي عندي هو أننا عبيد في فلسفتنا الأخلاقية ، وعبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، وعبيد في بطانتنا الثقافية .

فنحن عبيد في فلسفتنا الأخلاقية لأن مقياس الفضيلة والرذيلة عندنا هو طاعة سلطة خارجة عن أنفسنا أو عصيانها ؛ فأنت فاضل إن أطعت ، فاسق إن عصيت ، فلست أنت الذي يشرع لنفسه ما يأخذ وما يدع وما يعمل وما لا يعمل ، ويستحيل أن تكون إنسانا حرا إلا إذا كان لك من نفسك مشرع يهديك سواء السبيل ، بغض النظر عما تمليه السلطة الخارجة عن نفسك ، وبغض النظر عن كل ما يترتب على عملك من ثواب أو عقاب ؛ إذا أنت أحسنت إلى الفقير لأنك مأمور أن تحسن إلى الفقير ، فأنت في إحسانك عبد يأتمر بأمر سيده ، وقد يكون هذا السيد رأس القبيلة أو رئيس الحكومة أو قانون الدولة أو أباك أو كائنا من كان ، لكن جوهر الأمر واحد في جميع الحالات ؛ أما إذا أحسنت إلى الفقير صادرا في ذلك عما تمليه عليك نفسك من

واجب يحتمه العقل الخالص ومنطقه ، كنت في ذلك سيدا حرا
يستهدى نفسه سواء السبيل .

قد يعمل زيد من الناس عملا فاضلا حين ينفذ بعمله هذا
أمرا صدر له من سلطة خارجة عن نفسه ، وَعَدَتُهُ ثوابا إن عمله ،
وتوعدته عقابا إن تركه ؛ وقد يعمل عمرو نفس العمل الفاضل
الذي عمله زيد ، لا لأنه مأمور بفعله ، بل لأن منطق عقله يهديه
من تلقاء نفسه إلى فعله ؛ أقول قد يتشابه زيد وعمرو كل التشابه
فيما يعملان في موقف معين ، لكنهما يختلفان في الدافع إلى العمل ،
فيكون الدافع عند زيد هو تنفيذ الأمر الذي صدر إليه ، بينما
يكون الدافع عند عمرو وهو الاهتمام بهدى نفسه ، فيكون زيد
في عمله عبداً ، ويكون عمرو في عمله حرا ، على الرغم من تشابه
ما يعملان .

وأنا زعيم لك أننا نحمل في صدورنا أنفس العبيد ، لأن
فلسفتنا الأخلاقية كلها قائمة على تنفيذ ما نؤمر به .

ونحن كذلك عبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، سواء في ذلك
الأسرة بصفة خاصة والمجتمع كله بصفة عامة ، فالأسرة عندنا قائمة
— من الوجهة النظرية على الأقل — على الاستبداد من صاحب
الأمر والطاعة العمياء ممن يعتمدون في حياتهم عليه ؛ فالزوج

صاحب الكلمة النافذة على زوجته ، وللوالدين كليهما سلطة التحكم فى الأبناء ؛ وكثيرا ما قلت ذلك لأصدقائى فأجابونى بإشارات التهكم من وجوههم وأيديهم : تعال فانظر ، تر الزوجة مستبدة طاغية ، وتر الأبناء ذوى إرادة نافذة ودلال ؛ لكن تهكم الأصدقاء لا يقنع ، لأننى لا أزال أنظر إلى الناس من حولى فألاحظ أن الأسرة المثالية التى يفخر بها سيدها ويتمدح بها الناس ، هى التى يكون للزوج فيها على زوجته كلمة لا ترد ، ويكون للوالدين فيها حق الأمر الذى يجب على الأبناء أن يصدعوا به ؛ ولا أزال أنظر إلى الناس من حولى فألاحظ أنه بمقدار ما يكون للزوجة من مساواة بزوجها ، وللأبناء حق مناقشة الوالدين فيما يرغبون وما لا يرغبون ، تكون الأسرة بعيدة عن السكالم فى أعين الناس .

مثل هذه الأسرة شبيه بالدولة الاستبدادية على نطاق ضيق ، فيها حاكم بأسره طاغية ، وشعب يطيع ولا يناقش ، فيها راع ورعيته بالمعنى الحرفى لهاتين الكلمتين ، أعنى أن فيها راعياً وقطيعة من الخراف ؛ لو كان سيد الأسرة ممن يحبون الصمت فى الدار وجب على العيال أن يصمتوا فى حضرته ، وفى ذلك توضحية واضحة لمصلحة العيال فى سبيل مزاج العائل ، ولو كانت

الأمرة دولة حرة ، لفكر الكبير فى سبيل مصلحة الصغير بمقدار ما يتوقع من الصغير أن يفكر له فى صالحه ، الكبير من طبيعته الصمت والصغير من طبيعته الزياط ؛ فبأى حق يك أصحاب الجيل الحاضر أبناء الجيل المقبل ؟ لكنها فلسفة اجتماعية ورثناها فى نظام الأسرة وتمسكنا بها ، وهى تنطوى — كما قدمت — على بث أخلاق العبيد فى نفوس الناشئين .

ونحن عبيد فى فلسفتنا الاجتماعية أيضاً بالنسبة للمجتمع كله على وجه العموم ؛ فالمجتمع عندنا قائم على أساس أن الناس درجات ؛ وليس من اليسير على عقولنا أن تفهم ولا أن تسبغ أن الناس قد تختلف أعمالهم مع تساويهم فى القيمة الإنسانية ؛ فمن يحتل درجة أعلى له الحق — من الوجهة النظرية على الأقل — أن يستبد بمن هو فى درجة أدنى ؛ والعكس صحيح ، أى أن من يحتل فى المجتمع درجة أدنى عليه واجب أن يذل لمن هو أعلى منه ؛ وإنه ليكفيك أن تلقى نظرة خاطفة على تتابع الدرجات بين موظفى الحكومة ، وشدة اهتمام الموظفين بها اهتماماً يكاد لا يبقى لهم من الوقت لحظة واحدة يأكلون فيها هنيئاً ويشربون سريئاً — ولا أقول لحظة واحدة يعملون فيها ما يؤجرون على عمله — يكفيك هذا لترى أساس المجتمع واضحاً منعكساً فى نظام

الحكومة ، والنظر إلى الناس على أنهم درجات منطوية على عبودية وطنيان ، عبودية لمن يقع فوقك ، وطنيان بمن هو دونك في سلم البشر .

ونحن كذلك عبيد في بطانتنا الثقافية ، نكره المتشكك ونمقته ، ونحب المؤمن المصدق ونقدره ؛ يسودنا ميل شديد إلى الإيمان بصدق ما قاله الأولون ، كأنما هؤلاء الأولون ملائكة مقربون ، وكأننا أنجاس مناكيد ، ولو حللت هذا الموقف تحليلاً صحيحاً ، ألفيته موقف العبد نحو سيده ، فأنت تقرأ الكتاب — والكتاب القديم بوجه خاص — فلا ينشط فيك عقل الناقد الذي ينظر إلى الكاتب نظرة الند للند يناقشه الحساب فيما يقول ، بل تقف مما تقرأه موقف المستمع الذي حرم الله عليه أن يتشكك في صدق ما يقال ؛ ومن هذا القبيل ميل الناس بصفة عامة إلى تصديق المطبوع ، وميل التلاميذ إلى الإيمان بصدق ما يقوله المعلم ؛ هذه وأمثالها عبودية فكرية ، ويستحيل أن تكون إنساناً حراً بغير شيء من الفكر المستقل الناقد الحر .

فلئن زعمت لك أننا لا نكاد نخلق شيئاً جديداً في العلم أو

الأدب أو الفلسفة أو الفن ، ثم زعمت لك أن علة ذلك العجز
هو ما نحمله في صدورنا من أنفس العبيد ، لأن الخلق لا يكون
بغير غنة وطموح ، فإنما أردت شيئا كهذا الذي سُقِّتَه إليك
مثلا يوضح ما أريد .

أخلاق العبيد

سأقول وأعيد ، ثم أقول وأعيد ، إننا نتخلق بأخلاق العبيد ،
مهما بدا علينا من علائم الحرية وسمات السيادة ؛ سأقول ذلك
وأعيده ألف ألف مرة ، لعله يطنُّ في الأذان فيرن صدهاء في
الرووس ، فتقر آثاره في النفوس ؛ ولو كان جزائى من ذلك كله
أن أحول رجلاً واحداً ، أستغفر الله ، بل لو كان جزائى من ذلك
كله أن أحول نفسى من العبودية إلى الحرية ، ومن النذل إلى
العزة والسيادة ، لعددت ذلك جزاء وافياً شافياً ، ولاستقبلت
منيتى بعدئذ مطمئناً راضياً .

لقد زعمت لك^(١) أيها القارىء الكريم أننا عيال على العالم
المنتج ، لا نكاد نخلق شيئاً واحداً جديداً في الأدب أو العلم أو
الفلسفة أو الفن ، لا أقول اليوم ، ولا أقول أمس ، ولكنى
أقول إننا لم نكـد نخلق جديداً من أول الزمان إلى يومنا هذا ؛
لقد كنت أتحدث منذ أيام إلى إمام من أئمة الأدب في الشرق
العربى ، فقال : إن مصر فى كذا ألفاً من السنين لم تنجب أديباً

(١) انظر مقالتي « لماذا لا نخلق » .

عظيما ، فرددت عليه في ابتسامة الخجل : بل إن مصر يا سيدى
في كذا ألفاً من السنين لم تنجب عظيما ، لا في الأدب ، ولا في
غيره من شتى نواحي الفكر والحياة .

زعمت لك ذلك وعلاته بما « تتحلى » به من أخلاق العبيد ،
لأن الخلق عندي لا يكون إلا بعد عزة وسيادة وطموح ؛
فلاحظت لك أننا عبيد في فلسفتنا الأخلاقية ، لأننا نصدر فيما
نفعل عن طاعة لأمر سلطان خارج عن نفوسنا ، ولاحظت لك
أننا عبيد في فلسفتنا الاجتماعية ، لأننا نقيم نظام الأسرة ونظام
المجتمع على أساس من سيد ومسود ، ثم لاحظت لك أننا عبيد
في بطانتنا الثقافية ، لأننا نتضاع في يسر يشبه الانزلاق نحو
الإيمان والإعجاب بما قاله الأولون .

ولو كنا عبيداً ناقمين ساخطين على ما نحن فيه ، جاهدين
ساعين نحو إعزاز النفس وتحريرها ، لكان الخطب وخف البلاء ،
لأن أول مدارج الإصلاح نقمة وسخط على الحاضر ، ورغبة
في التغيير وسعى نحو تحقيقه ؛ لكن الخطب — فيما أرى —
فادح ، والبلاء جسيم ، لأننا نجد من العبودية مرتعاً خصيباً
نسرح فيه ونمرح ، مغتبطين أشد الغبطة ، راضين أكمل الرضى ؛

وقد عبرت عن ذلك في مقال « الكبش الجريح »^(١) ، إذ عجبت لهذا « الخروف » — وقد وثب عليه الذئب فمزق منه وانتهش — عجبت له كيف استمرأ ضرب الخالب ، واستلذ وقع الأنياب ؛ دماؤه تسيل وعلى شفثيه ابتسامة ، ويبلغ الذئب فيه ويلعق وفي عينيه نظرة استسلام ورضى !

لكن لما زعمت أننا عبيد ، عجب فريق مما زعمت ، وأخذ كل يتلفت حوله لعله يرى في جاره مصداق ما أقول ... واعجبا ! كيف نكون عبيداً وليس في أرجلنا أصفاد ولا في أيدينا أغلال ؟ بل كيف نكون عبيداً وقد حفظنا في المدارس أن أهمياتنا قد ولدتنا أحراراً ، ولا يجوز لأحد أن يستعبد أحداً ؟ ... كلا ! أنت أنت العبد لا تتلفت ، والأغلال والأصفاد في طوية فؤادك ودخيلة نفسك ، ولو كانت في يديك أو قدميك ، لكان الخطب أيسر ، لأن تحطيمها عندئذ يهون ؛ أنت أنت العبد لا تتلفت ، فلست تستطيع لنفسك عيشاً بغير سيد ، إن لم تجده في الأرض التمتسته في السماء .

لقد رأيت بعيني رأسي — إذ كنت في لندن — وزيراً في الوزارة الإنجليزية الحاضرة — مستر نويل بيكر — كان يمثل

حكومته في جمعية الأمم المتحدة ، رأيته بعيني رأسي ذات يوم ، حين آن أوان الشاي في العصر ، ينزل إلى طابق البناء الأسفل ليقف في صف كان بين أفراد صغار الكتبة والخدم ! وقف هناك ينتظر دوره ليشتري فنجاناً من الشاي وقطعة من الكعك ؛ وما فكر هو ، ولا فكر أحد ممن وقفوا أمامه أن تكون له أسبقية بحكم منصبه ، فسألت نفسي : هل يمكن أن يحدث ذلك في مصر ؟ وأجبت نفسي : إن حدوث ذلك في بلادنا مستحيل لسببين :

الأول — وهو أخف السببين شرّاً وأقلهما وبالا ، هو أن الوزير المصري لا يرضى لنفسه أن يكون في جمهرة من الناس تضم بين أفرادها عدداً من صغار الكتبة والخدم ، لأنه — كغيره من البشر — يريد لنفسه سطوة وسيادة ، وهاتان شرطهما « الترفع » و « التعالي » .

الثاني — وهو المأساة الحقيقية التي تمزق النفوس كماً ، لو كان لنا نفوس يمزقها الكمد — الثاني هو أنه حتى لو فرضنا حدوث المستحيل ، ففرضنا أن الله قد هيا لنا الوزير الذي يجد في نفسه « رفعة » لا تحتاج إلى « ترفع » و « علواً » لا يعوزه « التعالي » ، فلم يجد مضاضة في الوقوف في صف الكتبة والخدم

ساعة العصر ، ليأخذ في دوره فنجانته من الشاي ، أقول إننا لو فرضنا حدوث هذا المستحيل ، لأبى الناس أنفسهم على الوزير أن يكون مثلهم ، وأن يقف معهم على قدم المساواة في شئون حياته الخاصة التي لا يكون فيها وزيراً ؛ لو تنازل الوزير المصري ووقف في الصف مع الكتبة والخدم ، لأبى عليه ذلك هؤلاء الكتبة والخدم ، وتسابقوا إلى التنحى للوزير الخطير عن مكان الصدارة في الصف ، بل لتسابقوا إلى دفع القرش أو القرشين نيابة عنه ، بل لتسابقوا إلى حمل فنجانته إلى حيث يطيب للوزير الجلوس .

ولو حدث ذلك وقلت لأحد ممن وقفوا في الصف : هذه منك عبودية وذلة ، لدهش من قولك وأخذه العجب ونظر إلى يديه وإلى رجله ، حتى إذا لم يجد بها أغلالاً وأصفاداً ، صاح في وجهك محتجاً غاضباً : واعجباً ! كيف أكون عبداً وليس في قدمي أصفاد ولا في يدي أغلال ؟ وأعود فأستعير شيئاً مما قلته في مقالة «الكبش الجريح» : «قل في ذلك ما شئت يا «خروف» ، قل إنها وداعة الحملان ، أو قل إنه التواضع ، وإن للتواضع عند الله رفعة الشأن ، أو قل إنه كرم النفس ، وليس الكرم بغريب على بني القطعان ؛ قل في ذلك ما شئت يا خروف ، لكنه عندي

علامة لا تخطيء على ما في نفسك من ذل العبيد ، الذى يستمرىء
ضرب الخالب ، ويستلذ وقع الأنياب .

وأحب أن أذكر لك على سبيل الموازنة بالوزير الإنجليزي
الذى وقف فى صف الكتبة والخدم ، مصرى كبيراً — إذا قيس
الكبر بدرجات الوظائف ، كما تقاس حرارة الماء بالترمومتر —
أعرفه حق المعرفة ، ويعرفنى حق المعرفة كذلك ، لقيته بعد
غيبتى أعواماً ، وشاءت الظروف أن نلتقى فى ديوان حكومى ،
فأرادت له أوضاع المجتمع أن يسلم على تسليم الذى لا يعرفنى
كثيراً أو قليلاً ، وأنا لا أتهمه هو ، لأنى موقن أنه طيب النفس
كريم العنصر ، إنما أتهم المجتمع بأسره الذى هو عضو فيه ،
لأن هذا المجتمع — فيما يظهر — هو الذى وسوس له ألا يسلم
على الناس أمام الناس فى شىء من الترحيب ، خشية أن يظن
الناس أنه أمسى وبات مساوياً للناس !! وعندئذ ابتسمت لنفسى ،
أعنى أننى ابتسمت ابتسامة أحسها دون أن يراها الناس — وأنا
كثير الابتسام لنفسى هذه الأيام — ابتسمت لنفسى لما أدركت
أن المصرى الكبير قد فوتّ الغرض على نفسه وهو لا يدري ،
وإليك البيان :

أراد المصرى الكبير أن يكون كبيراً — مع أنه كبير —

فاتخذ لغايته سبيلا يعرفها علم النفس ودارسوه ، ألا وهى اصطناع القوة ليمتاز من سائر الناس ، ولا شك أن من دواعى القوة أن يسلم عليك الناس فلا تأبه للناس ! وهذا فى ذاته من المصرى الكبير جميل جد جميل ، لأن هذا هو ما أراد الله لعباده ، وليس فى وسع مصرى كبير أو صغير أن يعصى ما أراد الله لعباده ؛ لكن الذى غاب عن المصرى الكبير فلم يدركه ، هو أن القوة المنشودة لها سبيلان : إحداها حقيقية تؤدى إلى القوة بمعناها الصحيح ، وأما الأخرى فسبيل زائفة تخدعه وتخدع أمثاله ممن لا يتعمقون الأمور إلى لبابها ؛ وسبيلا القوة هما المقدرة والسيطرة ، المقدرة هى السبيل التى لا زيف فيها ولا خداع ، والسيطرة لذاتها هى السبيل المضللة الخادعة ؛ وهى مضللة خادعة ، لأنها تؤدى بسالكها إلى عكس ما أراد لنفسه ، إذ تؤدى به إلى الضعف والعجز ، وإنما أراد لنفسه قوة وسلطانا .

والمعجب فى هاتين السبيلين ، سبيلى القدرة والسيطرة أنهما نقيضان لا يجتمعان ، فإن كنت قويا بسبب قدرتك فيستحيل أن تلجأ إلى بسط سيطرتك على الآخرين ، وإن كنت راغباً فى بسط سيطرتك ، فيستحيل أن تكون قادرا ماهرا ، وقد يبدو هذا الكلام عجيبا ، لكنه فيما أعتقد كلام صواب ؛ فهل

تتصور — مثلاً — عالماً متبحراً في علمه متملكاً نواصيه ، يعمل في معمله بغية الوصول إلى نتائج في العلم جديدة ، هل تتصور مثل هذا العالم راغباً في بسط نفوذه على الناس ؟ لا أظن ذلك ، لأنه ليس بحاجة إلى مثل ذلك ، فهو يتجه بأمله ومجهوده نحو الطبيعة يريد أن يملك زمامها ، لا نحو عباد الله يبتغى إذلال رقابهم ؛ هو لا يريد بغيّاً ولا طغياناً ، لأنه قادر ماهر ، مكنته بنفسه ، والعكس صحيح ، أي أن الإنسان إذا ما شعر بخواء نفسه وعجزها وهي وحدها ، التمس القوة عن طريق الآخرين ، فبطش وتعسف .

الطاغية في صميم طبيعته عبد يذل للقوة حيث يراها ، كما أنه يبطش بالضعف أينما رآه ؛ الضعف عند الإنسان القوى القادر يستثير العطف والإشفاق ، أما الضعف عند الذي صاغه الله طاغية بطبعه ، فيغري بالاعتداء ، وكلما ازدادت الفريسة ضعفاً ، ازداد الطاغية بطشاً وعسفاً وطغياناً ، والعبودية والطغيان وجهان لشيء واحد .

والرأى عندي هو أننا عبيد لأننا طغاة ، وطغاة لأننا عبيد . وأما الإنسان الحر القادر المكتفي بنفسه في عزة وكبرياء ، فلا هو يظني بالضعيف ، ولا هو يعنو بوجهه ذلاً لطاغية .

فهرست

صفحة

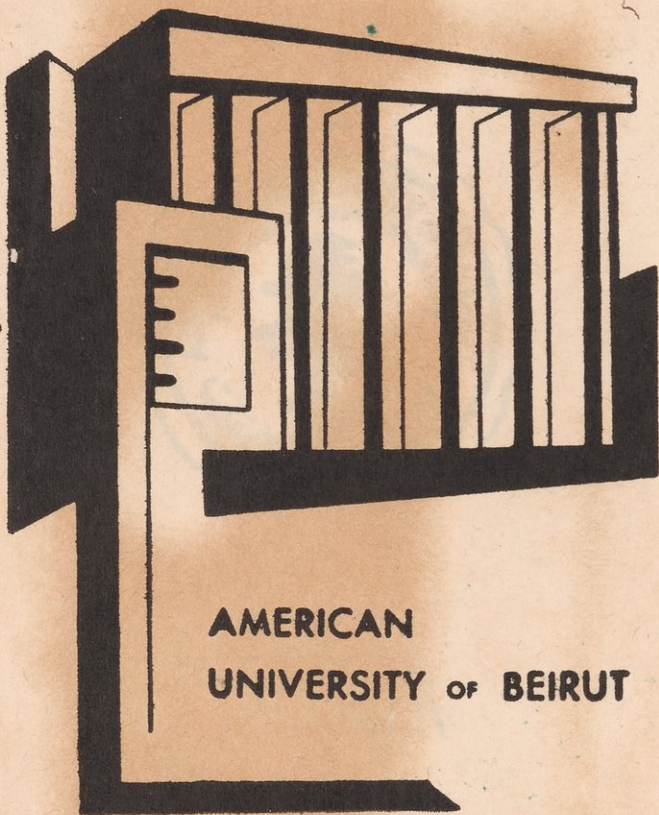
٥		الإهداء
١		مقدمة
٣		أدب المفالة
١٢		البرقانة الرخيصة
١٧		ذات الملمين
٢٣		شيطان الجرذ
٣٠		ثورة في خزانة الكتب
٣٧		خطيب هايد پارك
٤٥		جنة العبيط
٥٣		في سوق البغال
٦٣		بيضة النمل
٦٩		قصصات الزجاج
٧٧		الدقة الثالثة عشرة
٨٧		شعر مصبوغ
٩٣		تجوبع النمر
١٠٣		الكبش الجريح
١١٠		لست أومن بالإنسان
١١٨		حكمة اليوم
١٢٦		قارىء الأفكار
١٣٧		النساء قوامات
١٤٧		أعذب الشعر أصدق
١٥٧		قوة الخيال
١٦٦		لماذا لا نخلق (١)
١٧٥		لماذا لا نخلق (٢)
١٨٤		أخلاق العبيد



DATE DUE



محمود، زكي نجيب
جنة العبيط
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038836



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

